



أنوار السُّنة المُحمديَّة شرح رياض الصالحين (٤) باب التوبة (٢)

الشيخ أحمد السيد.



الفهرس

المقدمة:	٥
الحديث الأول: "ومن يحول بينه وبين التوبة؟"	٥
الفائدة الأولى: في أهمية القصص، وأن النبي ﷺ كان يخاطب أصحابه بالقصص.	٦
الفائدة الثانية: في فضل العلم ومنزلته وأهميته.	٧
الفائدة الثالثة: من أهم سبل التعامل مع المذنبين والعصاة فتح باب الأمل.	٧
الفائدة الرابعة: خطورة الفتيا والقول على الله بلا علم.	٨
الفائدة الخامسة: أهمية الصحبة الصالحة و هجران المعاصي وأهلها.	٨
الفائدة السادسة: هذا الحديث فيه سعة رحمة الله سبحانه وتعالى.	١٠
تذكير بالهدف من هذه السلسلة والسلاسل المشابهة:	١٠
الحديث السادس: "أبشر بخير يوم مرّ عليك منذ ولدتك أمك"	١١
التفصيل والتعليق:	١٥
فوائد الحديث:	١٦
الفائدة الأولى: في خطورة التأخر والتخلف عن مقامات نصره الدين والإسلام.	١٦
الفائدة الثانية: التخلف الذي فيه إثم.	١٦
الفائدة الثالثة: فضل بيعة العقبة.	١٧
الفائدة الرابعة: خلاصة مقدّمة كعب بن مالك للحديث.	١٩
الفائدة الخامسة: صدق كعب بن مالك في الرواية وعدم التبرير لنفسه.	١٩
الفائدة السادسة: هدي النبي ﷺ في التورية عند العمل لله في وجود الأعداء.	٢٠
الفائدة السابعة: أسباب تخلف كعب بن مالك عن الغزوة.	٢٢
الفائدة الثامنة: حال المنافقين في تلك المرحلة.	٢٣
الفائدة التاسعة: الردّ على شبهة أنّ الصحابة والمنافقين لم يكونوا معروفين.	٢٤
الفائدة العاشرة: استخلاف النبي ﷺ لعليّ -رضي الله عنه- على المدينة في هذه الغزوة.	٢٥

- الفائدة الحادية عشرة: اهتمام النبي ﷺ الخاص بكل فرد من أصحابه..... ٢٥
- الفائدة الثانية عشرة: حسن الظن بالمسلمين والحكم على الشخص من مجموع حاله..... ٢٧
- الفائدة الثالثة عشرة: افتقاد النبي ﷺ لأصحابه وتمنيه حضور من غاب منهم..... ٢٩
- الفائدة الرابعة عشرة: ابتدار النبي ﷺ المسجد إذا رجع من غزوة..... ٢٩
- الفائدة الخامسة عشرة: تعامل النبي ﷺ مع المنافقين..... ٣٠
- الفائدة السادسة عشرة: ابتسامه المعضب..... ٣١
- الفائدة السابعة عشرة: صدق كعب بن مالك في الاعتراف بسبب تخلفه رغم قدرته على الجدل والبيان..... ٣١
- الفائدة الثامنة عشرة: أمر قبول العذر والتوبة بيد الله -عز وجل- وحده..... ٣٢
- الفائدة التاسعة عشرة: مراقبة الصحابة للأحداث التي تحصل مع النبي ﷺ باهتمام وتناقل أخبارها..... ٣٣
- الفائدة العشرون: ثقل الذنب..... ٣٣
- الفائدة الحادية والعشرون: نسبة الخصلة..... ٣٤
- الفائدة الثانية والعشرون: غياب المعنى في حياة الثلاثة الذين تخلفوا بسبب هجر الرسول ﷺ وأصحابه لهم..... ٣٥
- الفائدة الثالثة والعشرون: فضل الصحابة -رضي الله عنهم- وشدة امتثالهم لأمر النبي ﷺ..... ٣٥
- الفائدة الرابعة والعشرون: مقدار تربص الأعداء بالنبي ﷺ..... ٣٧
- الفائدة الخامسة والعشرون: ابتلاء الإنسان في إيمانه عند الشدة..... ٣٧
- الفائدة السادسة والعشرون: التصرف الصحيح عند الابتلاء في الإيمان..... ٣٧
- الفائدة السابعة والعشرون: مقدار طاعة كعب بن مالك للنبي ﷺ بعد كل ذاك الهجران..... ٣٧
- الفائدة الثامنة والعشرون: فرح المسلمين بتوبة الله على أحدهم..... ٣٩
- الفائدة التاسعة والعشرون: مخالطة النبي ﷺ للناس..... ٤١
- الفائدة الثلاثون: الإنسان لا ينسى من أحسن إليه وقت الشدة..... ٤١

٤١	الفائدة الحادية والثلاثون: تأثير المشاعر على وجه النبي ﷺ
٤٢	الفائدة الثانية والثلاثون: خير يوم في حياة الإنسان هو يوم يتوب الله عليه
٤٣	الفائدة الثالثة والثلاثون: لا يعرف قيمة الخصال حقاً إلا من عاشها وابتلي بها
٤٤	الفائدة الرابعة والثلاثون: صدق فنجى!
٤٥	الخاتمة:

الحمد لله ربّ العالمين، حمدًا كثيرًا طيبًا مباركًا فيه كما يحب ربنا -تبارك وتعالى- ويرضى. الحمد لله كما ينبغي لجلال وجهه وعظيم سلطانه. اللهم صل وسلم وبارك على عبدك ورسولك محمد.

نستعين بالله ونستفتح المجلس الرابع من مجالس (الاستهداء بالسنة النبوية: شرح رياض الصالحين). وكما أسلفت: هذه المجالس ليس الهدف منها الوقوف عند تفاصيل الجمل، ودلالات الألفاظ، وما إلى ذلك... وإنما المقصود هو: التعرف على هدي النبي ﷺ والاستهداء به، ومحاولة ملاحظة السيرة النبوية التفصيلية من خلال الأحاديث؛ لأنه كما تقدم: سيرة النبي ﷺ تُعَلَّم من كُتُب السيرة، وغالبًا تتناول كتب السيرة الأحداث العامة.

وتُتناول سيرة النبي ﷺ كذلك من جهة الأحاديث. ومن يتعامل مع الأحاديث تعاملًا: أنّها مصدر فقط للأحكام أو الآداب بشكل عام، وليست مصدرًا للسيرة النبوية؛ يُفْتُهُ خير كثير. فنحن هنا في هذه المجالس، نتعامل مع الأحاديث النبوية، تعاملًا من يريد أن يتعرف على النبي ﷺ ويهتدي بهديه.

نحن في المجلس الرابع، وفي باب التوبة، وهو الباب الثاني من أبواب (رياض الصالحين)، وسبق أن أخذنا القسم الأول من هذا الباب، وعندنا الآن من هذا الباب حديثان طويلان.

الحديث الأول: "ومن يحول بينه وبين التوبة؟"

أما الحديث الأول: فهو حديث أبي سعيد الخدري؛ رضي الله تعالى عنه: أن النبي ﷺ قال: "كَانَ فَيَمَنْ كَانَ قَبْلَكُمْ رَجُلٌ قَتَلَ تِسْعَةً وَتِسْعِينَ نَفْسًا، فَسَأَلَ عَنْ أَهْلِ الْأَرْضِ فَدُلَّ عَلَى رَاهِبٍ، فَأَتَاهُ فَقَالَ: إِنَّهُ قَتَلَ تِسْعَةً وَتِسْعِينَ نَفْسًا، فَهَلْ لَهُ مِنْ تَوْبَةٍ؟ فَقَالَ: لَا. فَقَتَلَهُ، فَكَمَّلَ بِهِ مِئَةً، ثُمَّ سَأَلَ عَنْ أَهْلِ الْأَرْضِ فَدُلَّ عَلَى رَجُلٍ عَالِمٍ، فَقَالَ: إِنَّهُ قَتَلَ مِئَةَ نَفْسٍ، فَهَلْ لَهُ مِنْ تَوْبَةٍ؟ فَقَالَ: نَعَمْ، وَمَنْ يَحُولُ بَيْنَهُ وَبَيْنَ التَّوْبَةِ؟ انْطَلِقْ إِلَى أَرْضٍ كَذَا وَكَذَا، فَإِنَّ بَهَا أَنْاسًا يَعْبُدُونَ اللَّهَ فَاعْبُدِ اللَّهَ مَعَهُمْ، وَلَا تَرْجِعْ إِلَى أَرْضِكَ، فَإِنَّهَا أَرْضُ سَوْءٍ، فَاَنْطَلِقْ حَتَّى إِذَا نَصَفَ الطَّرِيقَ أَتَاهُ الْمَوْتُ، فَاحْتَصَمَتْ فِيهِ مَلَائِكَةُ الرَّحْمَةِ وَمَلَائِكَةُ الْعَذَابِ، فَقَالَتْ مَلَائِكَةُ الرَّحْمَةِ: جَاءَ تَائِبًا مُقْبِلًا بَقَلْبِهِ إِلَى اللَّهِ، وَقَالَتْ مَلَائِكَةُ الْعَذَابِ: إِنَّهُ لَمْ

يَعْمَلُ خَيْرًا قَطُّ، فَأَتَاهُمْ مَلَكٌ فِي صُورَةِ آدَمِيٍّ، فَجَعَلُوهُ بَيْنَهُمْ، فَقَالَ: قِيسُوا مَا بَيْنَ الْأَرْضَيْنِ، فَإِلَى أَيَّتَهُمَا كَانَ أَذْنَى فَهُوَ لَهُ، فَقَاسُوهُ فَوَجَدُوهُ أَذْنَى إِلَى الْأَرْضِ الَّتِي أَرَادَ، فَقَبَضَتْهُ مَلَائِكَةُ الرَّحْمَةِ" [صحيح مسلم/٢٧٦٦]. قَالَ قَتَادَةُ: "فَقَالَ الْحَسَنُ ذِكْرَ لَنَا، أَنَّهُ لَمَّا أَتَاهُ الْمَوْتُ نَأَى بِصَدْرِهِ".

وفي رواية في الصحيح: "فَأَوْحَى اللَّهُ إِلَى هَذِهِ أَنْ تَقْرِي، وَأَوْحَى اللَّهُ إِلَى هَذِهِ أَنْ تَبَاعِدِي، وَقَالَ: قِيسُوا مَا بَيْنَهُمَا، فَوُجِدَ إِلَى هَذِهِ أَقْرَبَ بِشِيرٍ، فَعُفِّرَ لَهُ" [صحيح البخاري/٣٤٧٠].

الكلام على هذا الحديث العظيم من جهات:

الفائدة الأولى: في أهمية القصص، وأن النبي ﷺ كان يخاطب أصحابه بالقصص.

وهذه القصص كان لها أثر كبير على الصحابة كما تعلمون، فالقصة لا تُنسى في مشهد متكامل، قد تنسى جملة، لكنك لن تنسى القصة بمجموعها. وقبل ذلك، اعتنى الله - سبحانه وتعالى - بذكر القصص في القرآن، وبيّن - سبحانه وتعالى - فائدة القصص، وسمى سورة بالقصص، وقال: ﴿نَحْنُ نَقُصُّ عَلَيْكَ أَحْسَنَ الْقَصَصِ﴾ [يوسف: ٣]، وقال: ﴿لَقَدْ كَانَ فِي قَصَصِهِمْ عِبْرَةٌ﴾ [يوسف: ١١١] إلى غير ذلك من الآيات... ثم لم يُكْتَفَ بذلك؛ حتى كان النبي ﷺ يزيد في العناية بأصحابه من هذه الجهة؛ فيقصّ عليهم كثيراً من القصص.

وتعلمون أن بعض القصص عن الأمم السابقة لم نعلمها إلا من طريق السنة، مثل: هذه القصة؛ قصة الذي قُتل تسعاً وتسعين نفساً، ومثل: قصة الغلام والساحر والراهب، وغيرها من القصص الكثيرة التي فيها تفاصيل.

حتى إنّ بعض القصص القرآنية يذكر النبي ﷺ من تفاصيلها ما لم يُذكر في القرآن، مثل: قصة الخضر وموسى عليه السلام، فالقصة مذكورة مجملّة في القرآن، والحال أنّ فيها تفاصيل بلا شك، ولكن هناك قدر من السعة في التفاصيل لم يُذكر إلا في السنة النبوية.

ولأجل ذلك؛ فإن على من يتبع النبي ﷺ في دعوته أن يعتني بتنويع أساليب البيان، وألا يكتفي بالخطاب المباشر بل يعتني بضرب الأمثال، وبذكر القصص، وبخاصة قصص الأنبياء، وما يتعلق بها... ففيها عبرة وفائدة كبيرة جدًا، وهذه أول فائدة من هذا الحديث.

الفائدة الثانية: في فضل العلم ومنزلته وأهميته.

ومقدار الاهتداء به واحتياج الناس في مختلف أحوالهم إلى العلم، وأن وجود العالم أهدى، وأكثر خيرًا وأكثر بركة على الناس من وجود العابد. ولذلك؛ زُوي أن العالم يستغفرُ له من في السماوات ومن في الأرض، والحية في جحرها، والحوت في البحر، إلى آخره... وفي هذه القصّة، اختلف جوابا العالم والعابد عن السؤال الذي ورد، فكان جواب العالم أركى، وأرشد، وأقرب، وأكثر رحمةً، وأدى إلى الخير. ومن هنا يُعلم أن غياب العلماء عن الأمة يؤدي إلى شر كبير، وأن الناس في احتياج دائم إلى العلماء العاملين بأمر الله، سبحانه وتعالى.

الفائدة الثالثة: من أهم سبل التعامل مع المذنبين والعصاة فتح باب الأمل.

وأن العاصي والمذنب متى ما رأى الأبواب مغلقةً أمامه، فإنه في الغالب لن يتوب، أو قد يزيده ذلك شرًا. ومن جمال الإسلام: أنه فتح الأبواب مشرعة أمام العصاة للتوبة. وقد مر أن الباب مفتوح للتوبة حتى تطلع الشمس من مغربها.

فالإنسان من طبعه الوقوع في الزلل والخطأ، فإذا علم أن الباب مفتوح للاستدراك كان أسهل عليه أن يرجع إلى الله سبحانه وتعالى، ويحب الله رجوع عبده إليه. ولذا؛ فتح هذا العالم بعلمه بابًا لهذا الرجل؛ ليعود إلى الله سبحانه وتعالى، فكان ذلك سببًا لإقلاعه عن المشكلة، أما العابد فقد أغلق الباب دون الرجل.

وقد يكون العابد تعامل بمنطق الصلاح المجرد، فكأنه كان دائم الصلاة والسجود والقيام، فلما أتاه أحد قد قتل تسعًا وتسعين نفسًا، قال له: ماذا بك؟! الناس مشغولون بالعبادة، والصلاة، والصوم... وأنت تقتل تسعة وتسعين نفسًا! لا، لا يوجد توبة! هل أعبد أنا ستين سنة، ثم تأتي أنت، وقد قتلت تسعة وتسعين نفسًا! فلما أغلق الباب أمامه؛ قَتَلَهُ.

فلا فرق أن يأتي الرجل يوم القيامة، وقد قتل تسعًا وتسعين أو قتل مئة! لا شك أنه زيادة في الشر، لكنّه يرى أنّه إن قتل تسعًا وتسعين، أو قتل مئة، أو مئةً وواحدًا من البشر، فقد قد قتل! قتل وانتهى، قتل الكثيرين! فقام وقتل العابد!

ومن هنا، يُعلّم أنّ هذا الأمر ليس خاصًا بهذه القصة. فحين التعامل مع العصاة والمذنبين، وحتى مع النفس حين تعصي وتذنب، يجب أن تعلم أن هناك أملًا دائمًا، وهذا الأمل يكون بحقيقة الرجوع إلى الله سبحانه وتعالى، ولا أتكلم هنا عن الغرور، ولا عن التماادي.

الفائدة الرابعة: خطورة الفتيا والقول على الله بلا علم.

وأن الإنسان لا يتكلم في الدين بعاطفته، ولو كان يظن أن كلامه في مصلحة الدين؛ لأن تقدير المصلحة لا يكون صوابًا دائمًا بمجرد الاستحسان الشخصي والنفسي. ولو كنت عابدًا ولو كنت غيورًا على الدين، فالفتيا في الدين مبنية على ما أنزل الله - سبحانه وتعالى - من الأمر والنهي، لا على ما تتوقعه من الشريعة، ولا على ما تستحسنه أنت، ولهذا الكلام شواهد تثبتته، ومن جملتها هذه القصة عظيمة الفائدة.

الفائدة الخامسة: أهمية الصحبة الصالحة و هجران المعاصي وأهلها.

هذا الحديث من أهم الأحاديث التي تثبت أهمية الصحبة الصالحة وأهمية هجران المعاصي وأهلها، وأهمية الانتقال إلى البيئات الحسنة والصالحة؛ لاستئناف حياة جديدة في الصلاح والخير.

إنسان يعيش في بيئة فاسدة، وحوله مفسدون كثر، ودائمًا ما يعصي إذا ذهب إلى هذه البيئة، ووجد أنه مهما قال إنه سيتوب فإنه إذا وصل إلى تلك البيئة سيعصي؛ إذ يُدَّكر بالمعصية فيعصي... ثم يفكر بعد ذلك، فيقول: أنا لا أستطيع أن أتوب! أقول: يا أخي، المشكلة ليست محصورةً في ضعف همّتك أو ما شابه، كلاً، بل إنك تنوي أن تتوب فعلاً، وأنت صادق في التوبة، لكن المشكلة الأساسية: هي في عدم اتّخاذك الأسباب المناسبة للتوبة، ومن أهمها: البيئة. وفي واقعنا اليوم، إذا كان الإنسان في بيئة جامعية فيها اختلاطٌ مثلاً، أو فساد ما، أو غير ذلك...، ورأى قلبه يتغير ويتغير ويعيش أنواعاً من الإشكال، وقد يحصل عنده قدر من الفساد أو من الذنوب أو من المعاصي، فإذا هو يعيش معدّباً، لا هو القادر على أن يستقيم على أمر الله، ولا هو بالذي ذهب أصلاً مع الذنوب والمعاصي -والحمد لله أنه ما ذهب- لأنه بقيت عنده بذرة الخير هذه، وأحياناً قد يكون الحل في تغيير البيئة!

قد يُقال: لقد وجدت هذه البيئة، أو التخصص، أو المجال، أو الجامعة بصعوبةً واجتهاداً! فنقول: كلّ إنسان يحدد أولوياته بناءً على المركزيات التي يعيش لأجلها، فإن كنت ممن يُؤثّر الآخرة على الدنيا وعندك أولوية لقاء الله -سبحانه وتعالى- واللجنة، ستتغير بعض المعايير؛ فستستطيع أن تغيّر البيئة، حتى لو أخذت شيئاً أدنى، وحتى لو بحثت لنفسك عن خيارات بديلة، ولكن لا ينبغي للإنسان أن يبقى في دار أو في مكان هو سبب الشر الذي هو فيه.

فهذا الحديث يرشدنا إلى: أنّ من أهم الأسباب المعينة على التوبة، وحتى على القبول عند الله -سبحانه وتعالى- أنه: إذا كان الإنسان في مكانٍ شرٍّ فأراد التوبة، فإن تغيير المكان هو من الأمور المطلوبة شرعاً.

الفائدة السادسة: هذا الحديث فيه سعة رحمة الله سبحانه وتعالى.

ونسأل الله - سبحانه وتعالى - أن يتغمدنا برحمته، ونسأل الله - سبحانه وتعالى - ألا يجعلنا من الأشقياء، اللهم ارحمنا برحمتك يا أرحم الراحمين! قلنا: سعة رحمة الله سبحانه وتعالى، فالقتل من أعظم الذنوب، ولا ريب، ومع ذلك فقد تاب الله - سبحانه وتعالى - على هذا الرجل، حين علم صدق نيته، ومبادرته إلى الاستدراك والتدارك.

تذكير بالهدف من هذه السلسلة والسلاسل المشابهة:

ننتقل إلى الحديث الآخر، وهو حديث طويل جداً، ولكنه حديث في صميم المعنى الذي فتحنا هذه الدروس لأجله، وهي: دروس الاستهداء بالسُّنَّة النبوية. أنا أرى أن أكثر الأحاديث التي تتصل مع فكرة هذه المجالس هي الأحاديث التي فيها: إمّا حوار بين النبي ﷺ وأصحابه، وفيها تسليط الضوء على شيء من هدي النبي ﷺ الفعلي العملي، فهذه من أكثر الأحاديث التي تحقق هدف هذه السلسلة وهذه المجالس.

(رياض الصالحين) مشروح كثيراً، فالذي يريد أن يبحث عن شرح الجمل بالتفصيل مثلاً سيجد كثيراً من الدروس أو المراجع، لكننا - كما قلنا - نحاول من هذه الزاوية تكميل فكرة: استخلاص الهدي النبوي. وحتى قضية (المنهاج من ميراث النبوة) وما يتعلق به، فهو محاولة لإنجاز نفس هذه الفكرة، في هذا الضوء من زاوية معينة، من زاوية: ما هي مركزيات الدين التي اعتنى بها النبي ﷺ؟ وحتى عندما نتناول (غيث الساري) فإنّ الوجه الثالث فيه - وهو الأساس - هو: في استخراج الهدي النبوي، وما يتعلق بالتزكية، والتربية، والمنهج الإصلاحي، وما إلى ذلك... فهنا أيضاً في (رياض الصالحين)، سيكون التركيز على هذا المعنى، بإذن الله تعالى.

طبعاً، سبقت من حيث الهدي الشمولي: سلسلة (السيرة النبوية للمصلحين). وقد قلت للزملاء: إن شاء الله، بإذن الله تعالى، إن يسر الله لنا، ونسأل الله التيسير، ففي النية وفي البال: إعادة تقديم السيرة

النبوية في وقت قادم، ولكن بصورة تفصيلية جداً، بمعنى: أن ندرس السيرة في ترتيبها المعروف، أي: في الأحداث العامة، ولكن بتفصيل تامّ وكبير جداً، فسلسلة (السيرة النبوية للمصلحين) كانت بين العشرين والثلاثين حلقة، ولكن النية في السلسلة المفصلة إن شاء الله أنها لا تقلّ عن الخمسين، أو السبعين... ففي المحصلة، يرجو الإنسان أنه بهذا الاهتمام بسيرة النبي ﷺ والأنبياء -وتعرفون (أنوار الأنبياء)- يُحاول بثّ المفاهيم الشرعية من جديد بالعناية بأصولها ويهدي الأنبياء والمرسلين، بطريقة نرجو -إن شاء الله- أن تكون نوراً وهداية لحملة الدين، وللأجيال الجديدة، ولَمَن يؤمّل فيهم الإصلاح، ومَن يؤمّل -بإذن الله تعالى- أن تكون على أيديهم النهضة بهذا الدين في هذا الواقع الصّعب والبئيس الذي نعيش فيه.

ولا شك أن هذا التغيير وهذا الاستصلاح والإصلاح لا يكون بمجرد الفعل، وإنما يكون بالفعل المبني على نور، وهذا النور لا بد أن يكون متّصلاً بمرجعية الوحي، وبمن بلغ مرجعية الوحي، وهو النبي ﷺ والأنبياء من قبله. فلذلك؛ العناية والتركيز التام على هدي النبي ﷺ وعلى هدي الأنبياء هو من صميم النور الذي يمكن أن يفيد أو يؤسس الأجيال القادمة أو الجديدة التي ستحمل هذا النور، بإذن الله تعالى. ولا شك، ولا ريب أنه سيكون ذلك، بإذن الله تعالى وفضله، وعونه، وتوفيقه.

الحديث السادس: "أبشر بخير يوم مرّ عليك منذ ولدتك أمك"

الحديث: "وعن عبد الله بن كعب بن مالك، وكان قائد كعب -رضي الله عنه- من بنيّه حين عمي، قال: سمعتُ كعب بن مالك -رضي الله عنه- يُحدّث بحديثه حين تخلف عن رسول الله ﷺ، في غزوة تبوك. قال كعب: لم أتخلف عن رسول الله ﷺ، في غزوة غزاها قط إلا في غزوة تبوك، غير أنني قد تخلفت في غزوة بدر، ولم يُعَاتَب أحد تخلف عنه، إنما خرج رسول الله ﷺ والمسلمون يُريدون غير فُريش حتى جمع الله -تعالى- بينهم وبين عدوّهم على غير ميعاد.

ولقد شهدت مع رسول الله ﷺ ليلة العقبة حين تَواثقنا على الإسلام، وما أحبُّ أن لي بها مشهد بدر، وإن كانت بدرٌ أذكر في الناس منها، كان من خبري: أي لم أكن قط أقوى ولا أيسر حين تخلفت

عنه في تلك الغزاة، والله ما اجتمعت عندي قبله راحلتان قط، حتى جمعتهما في تلك الغزوة، ولم يكن رسول الله ﷺ يريد غزوة إلا ورى بغيرها، حتى كانت تلك الغزوة، غزاها رسول الله ﷺ في حرٍ شديد، واستقبل سفراً بعيداً ومفازاً وعدواً كثيراً، فجلى للمسلمين أمرهم؛ ليتأهبوا أهبة عزوهم، فأخبرهم بوجهه الذي يريد، والمسلمون مع رسول الله ﷺ كثير، ولا يجمعهم كتاب حافظ - يريد الديوان - قال كعب: فما رجل يريد أن يتعيب إلا ظن أن سيخفى له، ما لم ينزل فيه وحي الله، وغزا رسول الله ﷺ تلك الغزوة حين طابت الثمار والظلال، وتجهز رسول الله ﷺ والمسلمون معه، فطفقت أعدو لكي تجهز معهم، فأرجع ولم أفض شيئاً، فأقول في نفسي: أنا قادرٌ عليه، فلم يزل يتمادي بي حتى اشتد بالناس الجُدُّ، فأصبح رسول الله ﷺ والمسلمون معه، ولم أفض من جهازي شيئاً، فقلت: أجهز بعده يوم أو يومين، ثم ألحقهم، فعذوت بعد أن فصلوا لأجهز، فرجعت ولم أفض شيئاً، ثم عذوت، ثم رجعت ولم أفض شيئاً، فلم يزل بي حتى أسرعوا وتفارط الغزو، وهممت أن أرتحل فأدركهم، وليتني فعلت!

فلم يقدّر لي ذلك، فكنت إذا خرجت في الناس بعد خروج رسول الله ﷺ فطفت فيهم، أحزني أني لا أرى إلا رجلاً مغموصاً عليه النفاق، أو رجلاً ممن عذر الله من الضعفاء، ولم يذكرني رسول الله ﷺ حتى بلغ تبوك، فقال وهو جالس في القوم بتبوك: "ما فعل كعب بن مالك؟" فقال رجل من بني سلمة: يا رسول الله، حبسه بُرداه ونظره في عطفه، فقال معاذ بن جبل: بنس ما قلت، والله يا رسول الله ما علمنا عليه إلا خيراً، فسكت رسول الله ﷺ، فبينما هو على ذلك رأى رجلاً مبيضاً يزول به السراب، فقال رسول الله ﷺ: "كن أبا خيثمة"، فإذا هو أبو خيثمة الأنصاري وهو الذي تصدق بصاع التمر حين لمزه المنافقون.

قال كعب بن مالك: فلما بلغني أنه توجه قافلاً، حصرني همي، وطفقت أتذكر الكذب، وأقول: بماذا أخرج من سخطه عدداً؟! واستعنت على ذلك بكل ذي رأي من أهلي، فلما قيل: إن رسول الله ﷺ قد أظلل قادماً، زاح عني الباطل، وعرفت أني لن أخرج منه أبداً بشيء فيه كذب، فأجمعت صدقه، وأصبح رسول الله ﷺ قادماً، وكان إذا قدم من سفر، بدأ بالمسجد، فيركع فيه ركعتين، ثم جلس للناس، فلما فعل ذلك جاءه المخلفون، فطفقوا يعتذرون إليه ويخلفون له، وكانوا بضعة وثمانين رجلاً، فقبل منهم رسول الله ﷺ علانيتهم، وبايعهم واستعفرهم، ووكّل سرائرهم إلى الله، فحجته، فلما سلّمت عليه

تَبَسَّمَ تَبَسُّمَ الْمُغْضَبِ، ثُمَّ قَالَ: "تَعَالَ"، فَجِئْتُ أَمْشِي حَتَّى جَلَسْتُ بَيْنَ يَدَيْهِ، فَقَالَ لِي: "مَا خَلَّفَكَ؟ أَلَمْ تَكُنْ قَدْ ابْتِغَتْ ظَهْرَكَ؟" فَقُلْتُ: بَلَى، إِنِّي وَاللَّهِ لَوْ جَلَسْتُ عِنْدَ غَيْرِكَ مِنْ أَهْلِ الدُّنْيَا، لَرَأَيْتُ أَنْ سَأَخْرُجَ مِنْ سَخَطِهِ بَعْدُ، وَلَقَدْ أُعْطِيتُ جَدَلًا، وَلَكِنِّي وَاللَّهِ، لَقَدْ عَلِمْتُ لَيْنَ حَدَّثْتُكَ الْيَوْمَ حَدِيثَ كَذِبٍ تَرْضَى بِهِ عَنِّي، لِيُوشِكَنَّ اللَّهُ أَنْ يُسَخِّطَكَ عَلَيَّ، وَلَيْنَ حَدَّثْتُكَ حَدِيثَ صِدْقٍ تَجِدُ عَلَيَّ فِيهِ، إِنِّي لَأَرْجُو فِيهِ عَفْوَ اللَّهِ، لَا وَاللَّهِ، مَا كَانَ لِي مِنْ عُذْرٍ، وَاللَّهِ مَا كُنْتُ قَطُّ أَقْوَى، وَلَا أَيْسَرَ مِنِّي حِينَ تَخَلَّفْتُ عَنْكَ، فَقَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ: "أَمَّا هَذَا فَقَدْ صَدَقَ، فَقُمْ حَتَّى يَقْضِيَ اللَّهُ فِيكَ".

فَقُمْتُ، وَثَارَ رِجَالٌ مِنْ بَنِي سَلَمَةَ فَاتَّبَعُونِي، فَقَالُوا لِي: وَاللَّهِ مَا عَلِمْنَاكَ كُنْتَ أَذْنَبْتَ ذَنْبًا قَبْلَ هَذَا، وَلَقَدْ عَجَزْتَ أَنْ لَا تَكُونَ اعْتَذَرْتَ إِلَى رَسُولِ اللَّهِ ﷺ بِمَا اعْتَذَرَ إِلَيْهِ الْمُتَخَلِّفُونَ، قَدْ كَانَ كَافِيكَ ذَنْبَكَ اسْتَغْفَارُ رَسُولِ اللَّهِ ﷺ لَكَ، فَوَاللَّهِ مَا زَالُوا يُؤَنِّبُونِي حَتَّى أَرَدْتُ أَنْ أَرْجِعَ فَأُكَذِّبَ نَفْسِي، ثُمَّ قُلْتُ لَهُمْ: هَلْ لَقِيَ هَذَا مَعِيَ أَحَدٌ؟ قَالُوا: نَعَمْ، رَجُلَانِ قَالَا مِثْلَ مَا قُلْتُ، فَقِيلَ لهُمَا مِثْلُ مَا قِيلَ لَكَ، فَقُلْتُ: مَنْ هُمَا؟ قَالُوا: مُرَارَةُ بْنُ الرَّبِيعِ الْعَمْرِيُّ، وَهَلَالُ بْنُ أُمَيَّةَ الْوَاقِفِيُّ، فَذَكَرُوا لِي رَجُلَيْنِ صَالِحَيْنِ قَدْ شَهِدَا بَدْرًا، فِيهِمَا أُسُوءَ، فَمَضَيْتُ حِينَ ذَكَرُوهُمَا لِي، وَنَهَى رَسُولُ اللَّهِ ﷺ الْمُسْلِمِينَ عَنْ كَلَامِنَا أَيُّهَا الثَّلَاثَةُ مِنْ بَيْنِ مَنْ تَخَلَّفَ عَنْهُ، فَاجْتَنَبْنَا النَّاسَ، وَتَغَيَّرُوا لَنَا حَتَّى تَنَكَّرْتُ فِي نَفْسِي الْأَرْضُ، فَمَا هِيَ الَّتِي أَعْرِفُ، فَلَبِثْنَا عَلَى ذَلِكَ خَمْسِينَ لَيْلَةً، فَأَمَّا صَاحِبَايَ فَاسْتَكْنَا وَقَعَدَا فِي بُيُوتِهِمَا يَبْكِيَانِ، وَأَمَّا أَنَا، فَكُنْتُ أَشَبَّ الْقَوْمِ وَأَجْلَدَهُمْ، فَكُنْتُ أَخْرُجُ فَأَشْهَدُ الصَّلَاةَ مَعَ الْمُسْلِمِينَ، وَأَطُوفُ فِي الْأَسْوَاقِ وَلَا يُكَلِّمُنِي أَحَدٌ، وَآتَى رَسُولَ اللَّهِ ﷺ فَأَسَلَّمُ عَلَيْهِ وَهُوَ فِي مَجْلِسِهِ بَعْدَ الصَّلَاةِ، فَأَقُولُ فِي نَفْسِي: هَلْ حَرَّكَ شَفَتَيْهِ بَرْدَ السَّلَامِ عَلَيَّ أَمْ لَا؟ ثُمَّ أَصْلِي قَرِيبًا مِنْهُ، فَأَسَارِقُهُ النَّظَرَ، فَإِذَا أَقْبَلْتُ عَلَى صَلَاتِي أَقْبَلَ إِلَيَّ، وَإِذَا التَفْتُ حَوَّهَ أَعْرَضَ عَنِّي، حَتَّى إِذَا طَالَ عَلَيَّ ذَلِكَ مِنْ جَفْوَةِ النَّاسِ، مَشَيْتُ حَتَّى تَسَوَّرْتُ جِدَارَ حَائِطِ أَبِي قَتَادَةَ، وَهُوَ ابْنُ عَمِّي وَأَحَبُّ النَّاسِ إِلَيَّ، فَسَلَّمْتُ عَلَيْهِ، فَوَاللَّهِ مَا رَدَّ عَلَيَّ السَّلَامَ، فَقُلْتُ: يَا أَبَا قَتَادَةَ، أَنْشُدْكَ بِاللَّهِ، هَلْ تَعَلَّمَنِي أَحَبُّ اللَّهِ وَرَسُولُهُ؟ فَسَكَتَ، فَعُدْتُ لَهُ فَنَشَدْتُهُ، فَسَكَتَ، فَعُدْتُ لَهُ فَنَشَدْتُهُ، فَقَالَ: اللَّهُ وَرَسُولُهُ أَعْلَمُ.

فَقَاضَتْ عَيْنَايَ، وَتَوَلَّيْتُ حَتَّى تَسَوَّرْتُ الْجِدَارَ، قَالَ: فَبَيْنَا أَنَا أَمْشِي بِسُوقِ الْمَدِينَةِ، إِذَا نَبْطِيٌّ مِنْ أَنْبَاطِ أَهْلِ الشَّامِ، مِمَّنْ قَدِمَ بِالطَّعَامِ يَبِيعُهُ بِالْمَدِينَةِ، يَقُولُ: مَنْ يَدُلُّ عَلَى كَعْبِ بْنِ مَالِكٍ؟ فَطَفِقَ النَّاسُ يُشِيرُونَ

له، حتّى إذا جاءني دَفَعَ إِلَيَّ كِتَابًا مِنْ مَلِكٍ غَسَّانَ، فَإِذَا فِيهِ: أَمَّا بَعْدُ؛ فَإِنَّهُ قَدْ بَلَغَنِي أَنَّ صَاحِبَكَ قَدْ جَفَاكَ، وَلَمْ يَجْعَلْكَ اللَّهُ بَدَارِ هَوَانٍ وَلَا مَضِيعَةٍ، فَالْحَقُّ بِنَا نُوَاسِكَ، فَقُلْتُ لَمَّا قَرَأْتُهَا: وهذا أيضًا مِنَ الْبَلَاءِ، فَتَيَمَّمْتُ بِهَا التَّنَوُّرَ فَسَجَرْتُهُ بِهَا، حتّى إذا مَضَتْ أَرْبَعُونَ لَيْلَةً مِنَ الْخَمْسِينَ، إِذَا رَسُولُ رَسُولِ اللَّهِ ﷺ يَأْتِينِي، فَقَالَ: إِنَّ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ يَأْمُرُكَ أَنْ تَعْتَزِلَ امْرَأَتَكَ. فَقُلْتُ: أَطْلُقُهَا أَمْ مَاذَا أَفْعَلُ؟ قَالَ: لَا، بَلْ اعْتَزِلْهَا وَلَا تَفْرُهَا. وَأُرْسِلَ إِلَى صَاحِبِي مِثْلَ ذَلِكَ، فَقُلْتُ لِامْرَأَتِي: الْحَقِّي بِأَهْلِكَ، فَتَكُونِي عِنْدَهُمْ حتّى يَقْضِيَ اللَّهُ فِي هَذَا الْأَمْرِ. قَالَ كَعْبٌ: فَجَاءَتِ امْرَأَةُ هِلَالِ بْنِ أُمَيَّةَ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ، فَقَالَتْ: يَا رَسُولَ اللَّهِ: إِنَّ هِلَالَ بْنِ أُمَيَّةَ شَيْخٌ ضَائِعٌ، لَيْسَ لَهُ حَادِمٌ، فَهَلْ تَكْرَهُ أَنْ أُحْدِمَهُ؟ قَالَ: "لَا، وَلَكِنْ لَا يَقْرَنِكَ".

قَالَتْ: إِنَّهُ وَاللَّهِ مَا بِهِ حَرَكَةٌ إِلَى شَيْءٍ، وَاللَّهِ مَا زَالَ يَبْكِي مُنْذُ كَانَ مِنْ أَمْرِهِ مَا كَانَ إِلَى يَوْمِهِ هَذَا، فَقَالَ لِي بَعْضُ أَهْلِي: لَوْ اسْتَأْذَنْتَ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ فِي امْرَأَتِكَ كَمَا أَذِنَ لَامْرَأَةِ هِلَالِ بْنِ أُمَيَّةَ أَنْ تَخْدُمَهُ؟ فَقُلْتُ: وَاللَّهِ لَا اسْتَأْذِنُ فِيهَا رَسُولَ اللَّهِ ﷺ، وَمَا يُدْرِينِي مَا يَقُولُ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ إِذَا اسْتَأْذَنْتُهُ فِيهَا وَأَنَا رَجُلٌ شَابٌّ؟ فَلَبِثْتُ بَعْدَ ذَلِكَ عَشْرَ لَيَالٍ، حتّى كَمَلْتُ لَنَا خَمْسُونَ لَيْلَةً مِنْ حِينَ نَهَى رَسُولُ اللَّهِ ﷺ عَنْ كَلَامِنَا، فَلَمَّا صَلَّيْتُ صَلَاةَ الْفَجْرِ صُبْحَ خَمْسِينَ لَيْلَةً وَأَنَا عَلَى ظَهْرِ بَيْتٍ مِنْ بُيُوتِنَا، فَبَيْنَا أَنَا جَالِسٌ عَلَى الْحَالِ الَّتِي ذَكَرَ اللَّهُ؛ قَدْ ضَاقَتْ عَلَيَّ نَفْسِي، وَضَاقَتْ عَلَيَّ الْأَرْضُ بِمَا رَحُبَتْ، سَمِعْتُ صَوْتَ صَارِخٍ، أَوْفَى عَلَى جَبَلٍ سَلَعَ بِأَعْلَى صَوْتِهِ: يَا كَعْبُ بْنُ مَالِكٍ، أَبْشِرْ، قَالَ: فَخَرَرْتُ سَاجِدًا، وَعَرَفْتُ أَنَّ قَدْ جَاءَ فَرَجٌ، وَأَذَنَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ بِتَوْبَةِ اللَّهِ عَلَيْنَا حِينَ صَلَّى صَلَاةَ الْفَجْرِ، فَذَهَبَ النَّاسُ يُبَشِّرُونَنَا، وَذَهَبَ قَبْلَ صَاحِبِي مُبَشِّرُونَ، وَرَكَضَ إِلَيَّ رَجُلٌ فَرَسًا، وَسَعَى سَاعٍ مِنْ أَسْلَمَ، فَأَوْفَى عَلَى الْجَبَلِ، وَكَانَ الصَّوْتُ أَسْرَعَ مِنَ الْفَرَسِ، فَلَمَّا جَاءَنِي الَّذِي سَمِعْتُ صَوْتَهُ يُبَشِّرُنِي، نَزَعْتُ لَهُ ثَوْبِي، فَكَسَوْتُهُ بِإِيَّاهَا يُبَشِّرَاهُ، وَاللَّهِ مَا أَمْلِكُ غَيْرَهُمَا يَوْمَئِذٍ، وَاسْتَعَرْتُ ثَوْبَيْنِ فَلَبِسْتُهُمَا، وَانْطَلَقْتُ إِلَى رَسُولِ اللَّهِ ﷺ، فَيَتَلَقَّانِي النَّاسُ فَوْجًا فَوْجًا، يُهَنُّونِي بِالتَّوْبَةِ، يَقُولُونَ: لَتَهْنِكَ تَوْبَةُ اللَّهِ عَلَيْكَ، قَالَ كَعْبٌ: حتّى دَخَلْتُ الْمَسْجِدَ، فَإِذَا رَسُولُ اللَّهِ ﷺ جَالِسٌ حَوْلَهُ النَّاسُ، فَقَامَ إِلَيَّ طَلْحَةُ بْنُ عُبَيْدِ اللَّهِ يُهْرُولُ حتّى صَافَحَنِي وَهَنَانِي، وَاللَّهِ مَا قَامَ إِلَيَّ رَجُلٌ مِنَ الْمُهَاجِرِينَ غَيْرُهُ، وَلَا أَنْسَاهَا لِطَلْحَةَ، قَالَ كَعْبٌ: فَلَمَّا سَلَّمْتُ عَلَى رَسُولِ اللَّهِ ﷺ، قَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ: وَهُوَ يَبْرُقُ وَجْهُهُ مِنَ السُّرُورِ: "أَبْشِرْ بِخَيْرِ يَوْمٍ مَرَّ عَلَيْكَ مُنْذُ وَلَدَتْكَ أُمُّكَ". قَالَ: قُلْتُ: أَمِنْ عِنْدِكَ يَا رَسُولَ اللَّهِ أَمْ مِنْ عِنْدِ اللَّهِ؟ قَالَ: "لَا، بَلْ مِنْ عِنْدِ اللَّهِ عِزَّ وَجَلَّ".

وكانَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ إِذَا سُرَّ اسْتَنَارَ وَجْهُهُ حَتَّى كَأَنَّهُ قِطْعَةُ قَمَرٍ، وَكُنَّا نَعْرِفُ ذَلِكَ مِنْهُ، فَلَمَّا جَلَسْتُ بَيْنَ يَدَيْهِ قُلْتُ: يَا رَسُولَ اللَّهِ، إِنَّ مِنْ تَوْبَتِي أَنْ أُخْلَعَ مِنْ مَالِي صَدَقَةٌ إِلَى اللَّهِ وَإِلَى رَسُولِ اللَّهِ. قَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ: "أَمْسِكْ عَلَيْكَ بَعْضَ مَالِكَ؛ فَهُوَ خَيْرٌ لَكَ".

قُلْتُ: فَإِنِّي أُمْسِكُ سَهْمِي الَّذِي بِخَيْرٍ، فَقُلْتُ: يَا رَسُولَ اللَّهِ، إِنَّ اللَّهَ إِنَّمَا نَجَّانِي بِالصِّدْقِ، وَإِنَّ مِنْ تَوْبَتِي أَنْ لَا أُحَدِّثَ إِلَّا صِدْقًا مَا بَقِيْتُ. فَوَاللَّهِ مَا أَعْلَمُ أَحَدًا مِنَ الْمُسْلِمِينَ أَبْلَاهُ اللَّهُ فِي صِدْقِ الْحَدِيثِ مُنْذُ ذَكَرْتُ ذَلِكَ لِرَسُولِ اللَّهِ ﷺ، أَحْسَنَ مِمَّا أَبْلَانِي؛ مَا تَعَمَّدْتُ مُنْذُ ذَكَرْتُ ذَلِكَ لِرَسُولِ اللَّهِ ﷺ إِلَى يَوْمِي هَذَا كَذِبًا، وَإِنِّي لَأَرْجُو أَنْ يَحْفَظَنِي اللَّهُ فِيمَا بَقِيْتُ، وَأَنْزَلَ اللَّهُ عَلَى رَسُولِهِ ﷺ: ﴿لَقَدْ تَابَ اللَّهُ عَلَى النَّبِيِّ وَالْمُهَاجِرِينَ وَالْأَنْصَارِ﴾ إِلَى قَوْلِهِ: ﴿وَكُونُوا مَعَ الصَّادِقِينَ﴾ [التوبة: ١١٧ - ١١٩]، فَوَاللَّهِ مَا أَنْعَمَ اللَّهُ عَلَيَّ مِنْ نِعْمَةٍ قَطُّ بَعْدَ أَنْ هَدَانِي لِلْإِسْلَامِ، أَعْظَمَ فِي نَفْسِي مِنْ صِدْقِي لِرَسُولِ اللَّهِ ﷺ، أَنْ لَا أَكُونَ كَذِبْتُهُ، فَأَهْلِكَ كَمَا هَلَكَ الَّذِينَ كَذَبُوا؛ فَإِنَّ اللَّهَ قَالَ لِلَّذِينَ كَذَبُوا - حِينَ أَنْزَلَ الْوَحْيَ - شَرًّا مَا قَالَ لِأَحَدٍ، فَقَالَ تَبَارَكَ وَتَعَالَى: ﴿سَيَحْلِفُونَ بِاللَّهِ لَكُمْ إِذَا انْقَلَبْتُمْ﴾ إِلَى قَوْلِهِ: ﴿فَإِنَّ اللَّهَ لَا يَرْضَى عَنِ الْقَوْمِ الْفَاسِقِينَ﴾ [التوبة: ٩٦].

قَالَ كَعْبٌ: وَكُنَّا تَخْلَفْنَا أَهْلَ الثَّلَاثَةِ عَنْ أَمْرِ أَوْلَيْكَ الَّذِينَ قَبِلَ مِنْهُمْ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ حِينَ حَلَفُوا لَهُ، فَبَايَعَهُمْ وَاسْتَغْفَرَ لَهُمْ، وَأَرْجَأَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ أَمْرَنَا حَتَّى قَضَى اللَّهُ فِيهِ، فَبِذَلِكَ قَالَ اللَّهُ: ﴿وَعَلَى الثَّلَاثَةِ الَّذِينَ خُلِفُوا﴾ [التوبة: ١١٨]، وَلَيْسَ الَّذِي ذَكَرَ اللَّهُ مِمَّا خُلِفْنَا عَنِ الْغَزْوِ؛ إِنَّمَا هُوَ تَخْلِيفُهُ إِيَّانَا، وَإِرْجَاؤُهُ أَمْرَنَا عَمَّنْ حَلَفَ لَهُ وَاعْتَدَرَ إِلَيْهِ فَقَبِلَ مِنْهُ. [صحيح البخاري: ٤٤١٨].

التفصيل والتعليق:

يقول عبد الله بن كعب بن مالك: "وَعَنْ عَبْدِ اللَّهِ بْنِ كَعْبِ بْنِ مَالِكٍ، وَكَانَ قَائِدَ كَعْبٍ -رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ- مِنْ بَنِيهِ حِينَ عَمِيَ، قَالَ: سَمِعْتُ كَعْبَ بْنَ مَالِكٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ يُحَدِّثُ بِحَدِيثِهِ حِينَ تَخَلَّفَ عَنْ رَسُولِ اللَّهِ ﷺ، فِي غَزْوَةِ تَبُوكَ. قَالَ كَعْبٌ: لَمْ أَتَخَلَّفَ عَنْ رَسُولِ اللَّهِ ﷺ، فِي غَزْوَةِ غَزَاهَا قَطُّ إِلَّا فِي غَزْوَةِ تَبُوكَ، غَيْرَ أَنِّي قَدْ تَخَلَّفْتُ فِي غَزْوَةِ بَدْرٍ، وَلَمْ يُعَاتَبْ أَحَدٌ تَخَلَّفَ عَنْهُ، إِنَّمَا خَرَجَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ وَالْمُسْلِمُونَ

يُرِيدُونَ عَيْرَ قُرَيْشٍ حَتَّى جَمَعَ اللَّهُ -تعالى- بَيْنَهُمْ وَبَيْنَ عَدُوِّهِمْ عَلَى غَيْرِ مِيعَادٍ. وَلَقَدْ شَهِدْتُ مَعَ رَسُولِ اللَّهِ ﷺ لَيْلَةَ الْعَقَبَةِ حِينَ تَوَاقَفْنَا عَلَى الْإِسْلَامِ، وَمَا أَحَبُّ أَنَّ لِي بِهَا مَشْهَدَ بَدْرٍ، وَإِنْ كَانَتْ بَدْرٌ أَذْكَرَ فِي النَّاسِ مِنْهَا". هذا مطلع القصة: قصّة تخلف كعب بن مالك -رضي الله تعالى عنه- عن غزوة تبوك.

وتعلمون أنّ أصل هذه القصة مذكور في القرآن الكريم: ﴿وَعَلَى الثَّلَاثَةِ الَّذِينَ خُلِّفُوا حَتَّى إِذَا ضَاقَتْ عَلَيْهِمُ الْأَرْضُ بِمَا رَحُبَتْ وَضَاقَتْ عَلَيْهِمْ أَنْفُسُهُمْ﴾ [التوبة: ١١٨] إلى آخر الآيات. والتفصيل في هذه القصة يرويه أحد الثلاثة الذين تخلّفوا، وقبل أن نبدأ بالقصة:

فوائد الحديث:

الفائدة الأولى: في خطورة التأخر والتخلف عن مقامات نصرّة الدين والإسلام.

هي أننا نتكلم عن قصّة أخذت مكانة واسعة في كتب السُنّة، أخرجها البخاري، ومسلم، وأصحاب الكتب، وهذا أطول حديث في الصحيحين، وأخذت هذه المكانة وهذه الشهرة. هذه القصة في معنى خطورة التخلّف عن مقامات نصرّة الدين؛ بمعنى: أننا في الإسلام لا نركز فقط على الجانب الإيجابي، وإنما يكون هناك تركيز على الجانب السلبي أيضاً، وخطورة المواقف التي فيها تأخّر؛ فأول فائدة هي: في خطورة التأخر والتخلف عن مقامات نصرّة الدين والإسلام، ومن أهمّها بلا شك ولا ريب، ما كان من جهاد رسول الله ﷺ.

الفائدة الثانية: التخلف الذي فيه إثم.

لماذا لم يعتبر كعب -رضي الله عنه- تخلفه عن غزوة بدر تخلفاً؟ يقول كعب بن مالك، رضي الله عنه: أنا ما تخلفت عن غزوة، إلّا بدر وتبوك، أما بدر فهو ما حسبتها؛ لأنه لم يكن يتكلم عن مجرد التخلف، وإنما عن التخلف الذي فيه إثم؛ لأن النبي ﷺ لما نادى فاستأذنه بعض الصحابة، قال: يا رسول الله،

إن الظهر الذي أريد أن أركب عليه وآتي بعيد، مثلاً: شمال المدينة، أو شرق المدينة... فقال: لا، إلا من كان ظهره حاضراً.

وخرج النبي ﷺ بسرعة لمجرد اعتراض العير، ولم يكن في البال القتال. فأخرجها كعب -رضي الله عنه- من قائمة الغزوات التي تخلف عنها؛ باعتبار أنه لم يكن هناك إثم في التخلف، ولكن طبعاً بدر هي بدر!

الفائدة الثالثة: فضل بيعة العقبة.

ولا شك أن بدرًا لها المنزلة المعروفة العظيمة في الإسلام، لكنه استدرك يقول: وإن كانت قد فاتتني بدر، إلا أنني شهدت مشهداً هو في نفسي أعلى، وأوثق، وأفضل من مشهد بدر، وإن كان بدر أذكر في الناس منه.

وهذا المشهد لم يشهده إلا القليل، وهو مشهد -بلا شك وبلا ريب- من أعظم المشاهد، وأزكاها، وأشرفها، مما قام به أصحاب رسول الله ﷺ. ولو قيل: أيهما أفضل مشهد العقبة أم مشهد بدر؟ فهو ما فضلها في ذاتها، يعني: لم يقل: إن يوم العقبة خير من يوم بدر، بل هو يتكلم عن شعوره وعن نفسه، أن إذا خيّرني أنا، فبالنسبة لي، أحب إليّ أني حضرت العقبة من حضوري يوم بدر. وإن كان من يوم في سيرة النبي ﷺ وإن كان من مشهد لأصحاب رسول الله في زمن رسول الله ينافس بدرًا، أو يغالب بدرًا، فلا شك ولا ريب أنه هو يوم العقبة!

وإن قلت: هل من يوم ثالث؟ لقلت: بيعة الرضوان. فهذه المشاهد الثلاثة هي أعلى المشاهد التي شهدتها الصحابة في زمن النبي ﷺ، ولذلك جاءت التزيينات النبوية الواضحة في بيعة الرضوان: "لا يَدْخُلُ النَّارَ أَحَدٌ مِّنْ بَايَعِ تَحْتَ الشَّجَرَةِ" [صحيح أبي داود: ٤٦٥٣].

وتعلمون ما جاء في بدرٍ من الأحاديث. وفي بيعة العقبة، المعنى والقضية الكبرى: أن الإسلام كله انتقل من حال إلى حال! انتقل النبي ﷺ من مرحلة إلى مرحلة مختلفة؛ فقد كان في ضيق حصار الكفار من:

أصحاب مكة وقريش، فانتقل إلى: سعة الأنصار، والمدينة، والانطلاق الجديد، ونشر الدين، والجهاد في سبيل الله... وما أدى إلى هذه الانتقالة إلا هؤلاء الذين شهدوا بيعة العقبة، أولئك الذين توثقوا مع رسول الله ﷺ على الإسلام، وتوثقوا على النصر؛ ولذلك سُمُّوا الأنصار.

وبيعة العقبة لا يمكن للإنسان حقيقة أن يصفها إلا بأنها: مشهد عظيم، مشهد جليل، مشهد كبير! بل قل لي أنت الآن: ما الذي يمكن أن تبذله في حياتك؛ حتى تقدم مشهداً مثل مشهد بيعة العقبة للإسلام؟!

لو عشت حياتك داعيةً مثلاً أو غير ذلك، ما قيمة ما تقدّمه للإسلام في ذاته، في مقابل ما قدّمه الصحابة في بيعة العقبة، إذ نقلوا رسول الله ﷺ من ضيق الحصار والشدة إلى سعة النصر والمؤازرة، والجهاد، والانطلاق وتبليغ هذا الدين؟! وهو الذي كان يدور ﷺ على القبائل، ويقول: من يؤويني؛ حتى أبلغ رسالة ربي؟ فهؤلاء هم الذين آووا ونصروا، الذين تبايعوا وبايعوا النبي ﷺ يوم العقبة! وهنيئاً لأصحاب بيعة العقبة، خاصة بيعة العقبة الأولى، الذين كانوا في البدايات!

تعلمون أنه كان هناك أناس قبل بيعة العقبة الأولى سمعوا قول رسول الله ﷺ، وما أراد أن يبلغ عن الله، فرجعوا إلى المدينة، وكلّموا بعض الناس، ثم تبايعوا بيعة العقبة، ثم رجعوا، ثم تمت بيعة العقبة الثانية... بيعة العقبة الثانية هذه هي التي يتحدث عنها كعب بن مالك، وهي التي انتقل بعدها وبسببها رسول الله ﷺ إلى المدينة، وحين نتكلم عن حياة رسول الله ﷺ، فإننا نقول: حياته في مكة، وحياته في المدينة. وعندما نتكلم عن نزول القرآن نقول: مكّي ومدني. يعني: الإسلام في مكّة، والإسلام في المدينة. فهتان مرحلتان، والجسر الانتقالي من مكّة إلى المدينة كان: بيعة العقبة. لأجل ذلك؛ قال كعب بن مالك، رضي الله عنه: وإن فاتني بدر، فإني إن خُيرْتُ بين بدر وبيعة العقبة، لا أحب أن يكون لي ببيعة العقبة بدر، وإنما أكتفي ببيعة العقبة عن بدر، لو كان هناك خيار.

الفائدة الرابعة: خلاصة مقدّمة كعب بن مالك للحديث.

فهو يريد يقول إذن هنا في هذه المقدمة: أنا حين تخلفت عن هذه الغزوة: غزوة تبوك، لم أكن منافقًا، ولم يكن شأني التخلف، ولم يكن شأني التأخر عن رسول الله ﷺ، فأنا منذ بيعة العقبة وأنا مع النبي ﷺ، وكنتُ معه في بقيّة الغزوات.

وأنتم الآن عندما تسمعون القصة، وحين أحكي لكم هذه القصة، فلا تظنوا أنّي أحكي لكم قصة إنسانٍ لا يريد أن يكون مع رسول الله ﷺ، وإنما قصة إنسان كان مع المصطفى ﷺ في كل أحواله، وفي جميع مشاهدته، ولكن غلبته نفسه في مرةٍ، فهذه المرة هي التي سأحكي لكم عنها.

الفائدة الخامسة: صدق كعب بن مالك في الرواية وعدم التبرير لنفسه.

قال: "وكانَ مِنْ خَبْرِي حِينَ تَخَلَّفْتُ عَنْ رَسُولِ اللَّهِ ﷺ، فِي غَزْوَةِ تَبُوكَ...". بعد أن قدّم هذه المقدمة، سيتعامل معك، وسيحكي لك بغاية الصدق والوضوح، فلن يبرّر لنفسه، ولن يحاول أن يجد مخرجًا يمينًا ويسارًا، بل سيعطيك الحقيقة كما هي.

قال: "وكانَ مِنْ خَبْرِي حِينَ تَخَلَّفْتُ عَنْ رَسُولِ اللَّهِ ﷺ، فِي غَزْوَةِ تَبُوكَ أَنِّي لَمْ أَكُنْ قَطُّ أَقْوَى وَلَا أَيْسَرَ مِنِّي حِينَ تَخَلَّفْتُ عَنْهُ فِي تِلْكَ الْغَزْوَةِ"، وكأنه بهذا يقول: لا تحاول أن تلتمس لي عذرًا، فما لي عذر أبدًا! فقد كنت في حالة جيدة، قويًا، ونشيطًا، وكلّ أمري على أحسن ما يُرام!

"والله ما جَمَعْتُ قَبْلَهَا رَاحِلَتَيْنِ قَطُّ حَتَّى جَمَعْتُهُمَا فِي تِلْكَ الْغَزْوَةِ؛ و"راحتين" هذه مهمّة أن تُذكر في غزوة تبوك؛ لأنّ الله -عزّ وجلّ- قال في سورة التوبة، في شأن غزوة تبوك: ﴿وَلَا عَلَى الَّذِينَ إِذَا مَا أَتَوْكَ لِتَحْمِلَهُمْ قُلْتَ لَا أَجِدُ مَا أَحْمِلُكُمْ عَلَيْهِ تَوَلَّوْا وَأَعْيُنُهُمْ تَفِيضُ مِنَ الدَّمْعِ حَزَنًا أَلَّا يَجِدُوا مَا يُنْفِقُونَ﴾ [التوبة: ٩٢]، فيقول كعب، رضي الله عنه: أنا لست من أصحاب هذه الآية، الذين لم يجدوا ما يُحمّلون عليه، كلاً، فقد كان عندي راحتان لا واحدة!

الفائدة السادسة: هدي النبي ﷺ في التورية عند العمل لله في وجود الأعداء

"وَلَمْ يَكُنْ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ يُرِيدُ غَزْوَةً إِلَّا وَرَىٰ بِغَيْرِهَا حَتَّىٰ كَانَتْ تِلْكَ الْغَزْوَةُ، فَعَزَّاهَا رَسُولُ اللَّهِ ﷺ فِي حَرٍّ شَدِيدٍ، وَاسْتَقْبَلَ سَفَرًا بَعِيدًا وَمَفَازًا، وَاسْتَقْبَلَ عَدَدًا كَثِيرًا، فَجَلَّىٰ لِلْمُسْلِمِينَ أَمْرَهُمْ لِيَتَأَهَّبُوا أَهْبَةً غَزَوْهُمْ فَأَخْبَرَهُمْ بِوَجْهِهِمُ الَّذِي يُرِيدُ".

مِنْ حَرَصِ النَّبِيِّ ﷺ وَاتِّخَاذِهِ الْأَسْبَابَ فِي قِتَالِهِ لِأَعْدَاءِ اللَّهِ أَنَّهُ: مَا كَانَ يَصْرِّحُ بِالِاتِّجَاهِ الَّذِي يَرِيدُ أَنْ يَخْرُجَ إِلَيْهِ؛ وَذَلِكَ حِفَظًا عَلَى الْمَعْلُومَاتِ. وَدَائِمًا، حِينَ يَكُونُ هُنَاكَ عَمَلٌ لِلْإِسْلَامِ وَنَصْرَةٌ لِلدِّينِ فِي بَيْئَةٍ فِيهَا أَعْدَاءٌ يُمْكِنُ أَنْ يَصِلُوا إِلَى هَذِهِ التَّحَرُّكَاتِ، فَإِنْ مِنْ هَدْيِ النَّبِيِّ ﷺ الْمَحَافِظَةُ عَلَى الْمَعْلُومَاتِ وَعَدَمُ التَّهَاوُنِ فِي إِفْشَائِهَا، وَالِامْتِنَاعُ عَنْ كَثْرَةِ الْكَلَامِ، وَالْقِيلُ وَالْقَالَ: ذَهَبْنَا، وَفَعَلْنَا، وَأَتَيْنَا...

قَدْ يَتَهَاوَنُ الْبَعْضُ أحيانًا فِي مِثْلِ هَذِهِ الْأَزْمَنَةِ؛ بِسَبَبِ مَنْطِقِ الْغَفْلَةِ الْمَوْجُودِ فِي كَثِيرٍ مِنَ الْبَيِّنَاتِ الشَّرْعِيَّةِ مَعَ الْأَسْفِ، فَكَأَنَّهُمْ يَعِيشُونَ فِي عَالَمٍ جَمِيلٍ وَنَظِيفٍ، وَكَأَنَّكَ إِذَا تَكَلَّمْتَ عَنْ إِنْجَازَاتِكَ فِي الدَّعْوَةِ إِلَى اللَّهِ فَإِنَّ الْعَالَمَ سَيَسْتَقْبِلُ هَذِهِ الْإِنْجَازَاتِ بِالْوَرُودِ، وَسَيَحْتَفِي بِذَلِكَ! كَلَّا، بَلْ هُنَاكَ مَتَرَبِّصُونَ! وَأَنْتَ فِي زَمَنِ يُحَارِبُ فِيهِ الْإِصْلَاحَ حَقًّا، وَبَعْضُ النَّاسِ - مَا شَاءَ اللَّهُ، تَبَارَكَ اللَّهُ - عِنْدَهُ مَا أَشَبَّهُهُ بِسَلَّاتِ الْمَعْلُومَاتِ، يَنْشُرُهَا فِي شَبَكَاتِ التَّوَاصُلِ وَغَيْرِهَا... فَيَسَاعِدُ الْمَتَرَبِّصِينَ بِالْإِسْلَامِ، وَبِالدَّعَاةِ، وَبِالْمُصْلِحِينَ بِكَثْرَةِ الْكَلَامِ، وَيَقْدِّمُ بَعْضُهُمْ أحيانًا بَعْضَ الْاسْتِعْرَاضَاتِ الشَّخْصِيَّةِ، فَيَقُولُ: أَنَا أَعْرِفُ الشَّيْخَ فُلَانًا، أَنَا أَعْرِفُ فُلَانَ الْفُلَانِي، أَنَا عِنْدِي مَعْلُومَاتٌ عَنْ كَذَا، أَنَا عِنْدِي مَعْلُومَاتٌ شَخْصِيَّةٌ... مَا شَاءَ اللَّهُ، أَهْذِهِ حُدُودُ أَمْنِيَّاتِكَ وَأَحْلَامِكَ؟! أَنْ تَكُونَ مُرَافِقًا شَخْصِيًّا؟! بَلْ أَكْمَلُ طَرِيقَ الْعِلْمِ؛ حَتَّى تَصْبَحَ شَيْئًا!

الشاهد: أن النبي ﷺ لما كان في بيئةٍ فيها منافقون وأهل كتاب، وكان يمكن أن تصل الأخبار إلى المشركين، كان إذا أراد التحرك إلى غزوةٍ، لا يصرح بمكان الغزوة، ولا يكتفي بعدم التصريح، بل يُظهر ما يفهم منه أنه يريد مكاناً آخر غير المكان الذي سيذهب إليه!

لا أعرف روايةً معيّنة تنص على صيغة هذه التورية، لكنني أتصور أنه قد يكون بالصيغة التالية: قد يكون النبي ﷺ يسأل عن مثلاً أحوال منطقة معينة، وينشر هذا السؤال عن أحوالها: كيف هذه المنطقة؟ كيف كذا؟ هل كذا؟ حتى يظنّ الناس أنه: ما دام هناك سؤال، وهناك ذكر لهذه المنطقة، وما دامت الحشود تُحشد، فلا شك أنه سيذهب إلى هناك.

أتوقع أن يكون هذا هو أسلوب التورية، بحيث تذهب أذهان الناس إلى المكان الذي سأل عنه النبي ﷺ واعتنى به. وما أعرف نصّاً - كما قلت - وإنما أقول: قد يكون هكذا، وقد يكون غير ذلك، لكن الفكرة هي: في التورية.

أما غزوة تبوك تحديداً، فلم يُورّ النبي ﷺ، وإنما أظهر الوجهة بشكلٍ صريح، والسبب في ذلك هو: استثنائية هذا السفر، واستثنائية هذه المعركة. وكان الوضع يحتاج إلى استعدادٍ؛ فقد كانوا ذاهبين إلى تبوك، والحر شديد، فأخبرهم ﷺ بالمكان والوجهة؛ حتى يأخذوا ما يكفي من الزاد، ويتجهزوا ويعلموا أنهم سيقطعون الفيافي، والقفار، والصحاري، والجبال، والأودية، والشعاب...

وهذه كلها تحتاج إلى نوع معين من الاستعداد، غير لو كانت الوجهة إلى مكة، أو إلى الساحل، فهذه قريبة، لكن تبوك بعيدة، والمنطقة مختلفة، والاستعداد يحتاج إلى حضور هذه الوجهة بعينها، فلاجل ذلك؛ وضح النبي ﷺ الوجهة في هذه الغزوة.

الفائدة السابعة: أسباب تخلف كعب بن مالك عن الغزوة.

"وَالْمُسْلِمُونَ مَعَ رَسُولِ اللَّهِ كَثِيرٌ وَلَا يَجْمَعُهُمْ كِتَابٌ حَافِظٌ - يُرِيدُ بِذَلِكَ الدِّيَّانَ - قَالَ كَعْبٌ: فَقُلَّ رَجُلٌ يُرِيدُ أَنْ يَتَعَيَّبَ إِلَّا ظَنَّ أَنَّ ذَلِكَ سَيُخْفِي بِهِ مَا لَمْ يَنْزِلْ فِيهِ وَحْيٌ مِنَ اللَّهِ...". العدد كبير، ولا يوجد كتاب جامع، ولا يوجد ديوان، فإذا توجده فرصة للتخلف بدون أن يشعر النبي ﷺ.

"وَعَزَا رَسُولُ اللَّهِ ﷺ تِلْكَ الْغَزْوَةَ حِينَ طَابَت الثَّمَارُ وَالظَّلَالُ". ووقت الرطب في المدينة وفي العموم: في عز الصيف. والذي لا يعرف النخل، والرطب، والمدينة لا يعرف معنى وقت خروج الرطب، فوقت هذه الثمرة وقت مختلف: وقت النعيم والانتظار! فهو ينتظر هذا طوال السنة! وبالمناسبة، حتى بعدما تغيرت الأحوال إلى الآن، لا يزال الوضع هكذا، وإن كان أقل درجة، لكن الناس إلى الآن ينتظرون موسم الرطب، ينتظرون إثمار النخيل وخروج الرطب، وخاصة أهل النخل.

وبالنسبة لأهل المدينة، فما عندهم من شيء غير النخيل! فليست المدينة ذات تنوع كبير في الثمار والفواكه، بل إن خلاصتها في النخل، حتى في زمن النبي ﷺ، وحتى هو ﷺ حين أراد أن يُعرّف أرض المدينة كمهاجر عن طريق الرؤية التي جاءته، قال: "رَأَيْتُ فِي الْمَنَامِ أَنِّي أَهَاجِرُ مِنْ مَكَّةَ إِلَى أَرْضٍ بِهَا نَخْلٌ، فَذَهَبَ وَهَلِيَ إِلَى أَنَّهَا الْيَمَامَةُ أَوْ هَجَرٌ، فَإِذَا هِيَ الْمَدِينَةُ يَثْرِبُ" [صحيح البخاري: ٧٠٣٥].

فلما كان كعب بن مالك يقول: "وكانت تلك الغزوة حين طابت الثمار والظلال" هنا لابد أن تعرف أن المسألة لم تكن سهلة أبداً! قال: "فَأَنَا إِلَيْهَا أَصْعُرُ - يعني أميل - فتجهّز رسول الله ﷺ وَالْمُسْلِمُونَ معه، وطفقت أغدو لكي أجهّز معه...".

هذه النتيجة الطبيعية، هذا شخص شهد المشاهد مع رسول الله ﷺ، نادى رسول الله ﷺ في الناس، ولم يتعود كعب بن مالك أن يتخلف ولا مرة، فراح يتجهّز، قال: "فَأَرْجِعْ وَلَمْ أَقْضِ شَيْئاً، وَأَقُولُ فِي نَفْسِي: أَنَا قَادِرٌ عَلَى ذَلِكَ إِذَا أَرَدْتُ، فَلَمْ يَزَلْ يَتِمَادَى بِي حَتَّى اسْتَمَرَّ بِالنَّاسِ الْجِدُّ".

تسويق! يقول: اليوم... بل غدًا... يذهب أو ينشغل... وواضح أنه لم تكن فيه تلك العزيمة القوية المنعقدة في قلبه، ولكن في نفس الوقت، لم يكن قد أزمع في نفسه مبكرًا التخلف عن هذه الغزوة.

قال: "فَلَمْ يَزَلْ يَتِمَادَى بِي حَتَّى اسْتَمَرَ بِالنَّاسِ الْجِدُّ فَأَصْبَحَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ غَادِيًا وَالْمُسْلِمُونَ مَعَهُ، وَلَمْ أَقْضِ مِنْ جِهَازِي شَيْئًا، ثُمَّ غَدَوْتُ فَرَجَعْتُ وَلَمْ أَقْضِ شَيْئًا، فَلَمْ يَزَلْ يَتِمَادَى بِي حَتَّى أَسْرَعُوا وَتَفَارَطَ الْعَزْوُ، فَهَمَمْتُ أَنْ أَرْحَلَ فَأُدْرِكُهُمْ، فَيَا لَيْتَنِي فَعَلْتُ، ثُمَّ لَمْ يُقَدَّرْ لِي ذَلِكَ".

هذا مثالٌ على أحوال بعض الناس في مقامات نصره الدين والإسلام: "إن شاء الله"، "أحاول"، "لعله"، "بإذن الله"، "إن تيسرت"، وهكذا... والناس يعملون، ويذلون من أوقاتهم، وأعمارهم، وفكرهم، وأموالهم، ونفوسهم... يذلون خاصة في أوقات الصعوبة، وأوقات الشدة، وأوقات الإدبار.

وبعض الناس وهبه الله علمًا، أو عقلاً، أو مَالًا، أو قدرةً، وليس من المنافقين، ولا يريد أن يتخلف عن مقامات نصره الدين والإصلاح، وما إلى ذلك، وإنما ابتلي بنفس مُسَوِّفَةٍ! وقد يكون هذا أحيانًا؛ بسبب ذنوبٍ عند الإنسان؛ فيبتلى بهذه النفس المُسَوِّفَةِ؛ فلا يعقد هذا العزم. وقد يكون أحيانًا من الشيطان، فليس بالضرورة أن يكون من أصحاب الذنوب. والشيطان يغالب في مثل تلك الأحوال.

الفائدة الثامنة: حال المنافقين في تلك المرحلة.

انتهت فكرة اللحاق برسول الله ﷺ، وخرج رسول الله ﷺ والجيش، وغادروا المسافة التي يمكن اللحاق بهم فيها. قال: "فَطَفَقْتُ إِذَا خَرَجْتُ فِي النَّاسِ بَعْدَ خُرُوجِ رَسُولِ اللَّهِ ﷺ يُخْزِنِي أَنِّي لَا أَرَى لِي أَسْوَةً، إِلَّا رَجُلًا مَعْمُوصًا عَلَيْهِ فِي النِّفَاقِ، أَوْ رَجُلًا مِمَّنْ عَذَرَ اللَّهُ -تَعَالَى- مِنَ الضُّعَفَاءِ".

غزوة تبوك كانت في مرحلةٍ في آخر السيرة النبوية، وكانت أحوال المنافقين مختلفةً عن حالهم في البدايات، فقد كانوا أقوى في البدايات، وكانت أعدادهم تبدو أكبر في البدايات؛ لأنّ الذين تخلفوا وانصرفوا في أحد كانوا تقريبًا ثلث الجيش، وكان لهم تأثير حتى في الدوائر الصالحة بدليل: ﴿إِذْ هَمَّتْ طَّائِفَتَانِ مِنْكُمْ

أَنْ تَفْشَلَا وَاللَّهُ وَلِيُّهُمَا ﴿١٢٢﴾ [آل عمران: ١٢٢]، وقد يكون هذا الفشل - كما يذكر بعض العلماء - بسبب انسحاب أولئك المنافقين.

لكن بعد ذلك بدأ الحال ينتظم شيئاً فشيئاً، فصاروا أقل عدداً، ثم صاروا يُسَرَّون، كما قال الله سبحانه وتعالى: ﴿لَئِنْ لَمْ يَنْتَهِ الْمُنَافِقُونَ وَالَّذِينَ فِي قُلُوبِهِمْ مَرَضٌ وَالْمُرْجِفُونَ فِي الْمَدِينَةِ لَنُغْرِيَنَّكَ بِهِمْ ثُمَّ لَا يُجَاوِرُونَكَ فِيهَا إِلَّا قَلِيلًا ﴿٦٠﴾ مَلْعُونِينَ أَيْنَمَا ثُقِفُوا أُخِذُوا وَقُتِلُوا تَقْتِيلًا﴾ [الأحزاب: ٦٠ - ٦١]، والعلماء يطرحون سؤالاً: لماذا لم يُخرجهم النبي ﷺ؟ ولماذا لم يؤخذوا ويقتلوا تقيلاً؟! فهذا تهديد لهم في سورة الأحزاب، ومن الأقوال المشهورة أنهم انتهوا، فقد هدد الله عز وجل الذين ﴿لَمْ يَنْتَهِ﴾، أما هم فقد انتهوا، يعني: انتهوا عن تصرفاتهم التي بسببها نزلت هذه الآية: ﴿لَئِنْ لَمْ يَنْتَهِ الْمُنَافِقُونَ وَالَّذِينَ فِي قُلُوبِهِمْ مَرَضٌ وَالْمُرْجِفُونَ فِي الْمَدِينَةِ﴾، فانتهوا بعدها، وخدوا، وخنسوا.

ولذلك؛ لاحظ هنا أنّ ما يتعلق بغزوة تبوك من سورة التوبة يحتاج إلى تأمل أوسع، ونسأل الله أن يمن علينا بإكمال سلسلة (بيان القرآن لسبيل المجرمين)؛ فنكمل الحديث عن المنافقين خاصة في سورة التوبة. يسهّلها الله، إن شاء الله. فما أقوله هو: أن هذا يحتاج لتأمل عميق: طبيعة عمل المنافقين في السيرة النبوية، وهل استمروا بنفس الدرجة، وب نفس الطريقة، وب نفس الوتيرة في كل السنوات، أم كان هناك اختلاف؟ وما سمات هذا الاختلاف؟ هذا برأيي مفتاحٌ حتى في فهم الآيات القرآنية، فالآيات القرآنية تأتي في أوقات مختلفة، وكلها تناسب الحال في ذلك الوقت. فبرأيي، هذه قضية مهمة جداً.

الفائدة التاسعة: الردّ على شبهة أنّ الصحابة والمنافقين لم يكونوا معروفين.

الشاهد: عندما كان كعب بن مالك يخرج إلى الشارع، أو إلى السوق، أو إلى خارج البيت يبحث عن الصحابة، ما كان يجد إلا رجلاً مغموصاً عليه في النفاق. وهذا يقودنا إلى شيء آخر، ألا وهو: أنّ الصحابة كانوا معروفين، وأنّ المنافقين كانوا معروفين في الجملة، خاصة في آخر الوقت.

نعم، هناك من بقي لا يُعرَفُ، ولكن آل الأمر إلى أن صار أغلبهم معروفين، وإن كانوا يُسِرُّون، ولكنهم معروفون؛ فهم يتخلفون دائماً، وعندهم مشاكل دائماً، وتراهم دائماً معاً، ويأوي الواحد منهم إلى شبيهه في الشر. وهذا من جملة ما يُستدلُّ به في الرد على بعض الشبهات التي تثار على بعض الصحابة، فمن الطاعنين من يأتي بالآيات التي ذُكر فيها المنافقون؛ ليقولوا إنه لم يكن هناك صحابة! يقولون: قال الله إن هناك منافقين صفتهم كذا، لا ندري من هم! سبحان الله! قد يكون كلهم من المنافقين، قد يكون بقي القليل! وهذه وسيلة من وسائل التشكيك المعهودة عند الطاعنين، سواء من جهة الرفض أو غيرهم.

وهذا الكلام الذي قاله كعب بن مالك هو من جملة وسائل الرد، يعني: يقول: لما خرج النبي ﷺ بهذا الجيش، كنتُ أخرج إلى السوق؛ لأبحث عن أسوة لي، فلا أجد إلا رجلاً مغموصاً عليه في النفاق أو ممن عذر الله من الضعفاء، وفرق بينهم. سيأتي استثناء: أنه يوجد اثنان أيضاً هما فقط مثل كعب بن مالك، لم يكونا من المنافقين ولا من الضعفاء.

الفائدة العاشرة: استخلاف النبي ﷺ لعليّ -رضي الله عنه- على المدينة في هذه الغزوة.

وتعرفون أن النبي ﷺ كان إذا خرج لأي غزوة، استخلف خلفه رجلاً، فاستخلف في هذه الغزوة على المدينة عليّاً، رضي الله -تعالى- عنه، وهنا قال له ﷺ: "أَمَا تَرْضَى أَنْ تَكُونَ مِنِّي بِمَنْزِلَةِ هَارُونَ مِنْ مُوسَى؟ غَيْرَ أَنَّهُ لَا نَبِيَّ بَعْدِي" [صحيح مسلم: ٢٤٠٤] حين عينه على المدينة -رضي الله تعالى عنه وأرضاه- حين خرج النبي ﷺ إلى تبوك.

الفائدة الحادية عشرة: اهتمام النبي ﷺ الخاص بكل فرد من أصحابه.

"وَلَمْ يَذْكُرْنِي رَسُولُ اللَّهِ ﷺ حَتَّى بَلَغَ تَبُوكَ، فَقَالَ وَهُوَ جَالِسٌ فِي الْقَوْمِ بَتَّبُوكَ: "مَا فَعَلَ كَعْبُ بْنُ مَالِكٍ؟".

كم كان عدد الجيش الذين مع النبي ﷺ؟ لا أذكر في رواية من روايات السيرة النبوية أو في حدث من أحداث السيرة النبوية أن كان عدد العُزاة أكبر من الذين كانوا في تبوك! فكان هذا أكبر تجمع أو من أكبر تجمعات الصحابة العسكرية في زمن النبي ﷺ!

أمام النبي ﷺ آلاف مؤلفة من الصحابة، فقد كانت تبوك في آخر مرحلة من مراحل الدعوة النبوية، وليس كعب بن مالك في منزلة أبي بكر وعمر وعثمان وعلي، ولا في منزلة أبي عبيدة بن الجراح، وسعد بن أبي وقاص، وطلحة بن عبيد الله، والزبير بن العوام... وليس هو مُكثراً من رواية الأحاديث، فقد جاء المكثرون بعد ذلك، ولم يكن أيضاً من الذين لازموا النبي ﷺ ملازمة علمية أكثر من القدر العادي، وليس هو ممن خدم النبي ﷺ مثل: أنس بن مالك لتقول إنه كان خادماً للنبي ﷺ، ولذلك افتقده النبي ﷺ! ولكنه كان من جملة الصحابة، رضي الله تعالى عنه.

وأزكى بطاقة تعريفية لكعب بن مالك: أنه كان ممن بايع في بيعة العقبة. ومع ذلك، ذكره النبي ﷺ وسأل عنه باسمه! فكرة سؤال النبي ﷺ عن كعب بعينه من بين الصحابة، هذا شيء، بالإضافة إلى فكرة: أن النبي ﷺ كأنه استوعب رؤية الوجوه التي معه، هؤلاء الآلاف كلهم خلال الطريق، فمن خلال هذا الاستعراض افتقد كعب بن مالك، فهو ما سأل عن كعب إلا بعد ما افتقده، وما افتقده إلا بعد ما رأى الجميع تقريباً ﷺ!

كيف يمكن أن نعلق على هذا؟! مشكلة أن يكون عندك كلام كثير لتقوله! فطبيعة حياة النبي ﷺ وتعامله مع الصحابة مختلف كثيراً! مختلف عن تعامل كثير ممن يدرّس العلوم الشرعية أو يتعامل مع الطلاب! مختلف جداً! النبي ﷺ يعرفهم، ويعرف أحوالهم، ويتفقدهم، وينتبه إليهم، ويعرف المستويات، ويعرف الخصائص والسمات الشخصية لكل منهم...!

أنا لا أتكلم الآن عما يأتيه بنص الوحي عن فلان وفلان، وإنما عن طبيعة التعامل النبوي الذي هو محل الاقتداء، فصراحةً يُحتاج إلى أن يكون هذا عنواناً لدرسٍ تربويٍّ: (ما فعل كعب بن مالك؟! وحتى في الحديث الآخر، لما قال في حديث جلييب: "قَالَ: هَلْ تَفْقِدُونَ مِنْ أَحَدٍ؟ قَالُوا: نَعَمْ، فُلَانًا، وَفُلَانًا، وَفُلَانًا، ثُمَّ قَالَ: هَلْ تَفْقِدُونَ مِنْ أَحَدٍ؟ قَالُوا: لَا، قَالَ: لَكِيَّ أَفْقَدُ جُلَيْبِيًّا" [صحيح مسلم: ٢٤٧٢]، وفكرة تسمية الصحابة (أصحاب) رسول الله أصلاً، فهذه كلها ينبغي أن تكون محل تأمل كبير جداً صراحةً!

الفائدة الثانية عشرة: حسن الظن بالمسلمين والحكم على الشخص من مجموع حاله.

فقال: "ما فعل كعب بن مالك؟" فقال رجل من بني سلمة: يا رسول الله حبسه بُرداه، والنظر في عطفه يعني: ما له عذر يا رسول الله، بل جلس لرغبته! هذه الخلاصة! فقال له: معاذ بن جبل: بئس ما قلت، والله يا رسول الله ما علمنا عليه إلا خيراً.

ومن حيث حقيقة الواقع، الأقرب إلى الصواب هو: الأول؛ لأن كعب مالك بنفسه قال: كانت حالي جيدةً، لكنه التسويف فقط. وقال: أنا ملت إلى الثمرات، وإني إليها أصغر. ولكن الأصبوب في التصرف: معاذ بن جبل. فهذا هو المنهج.

الذي فعله معاذ هو المنهج، فالمنهج هو: إحسان الظن بناءً على: "ما علمنا عليه إلا خيراً"، إذ لم يسأل النبي ﷺ عن رجل قد عُرف منه النفاق أو عُرف عنه التخلف عن مواطن نصرته الدين، وإنما سأل عن رجل لم يُعهد عنه إلا الخير. ولما تخلف كعب بن مالك -رضي الله عنه- في هذه الغزوة، فمنطقيًا وبالحسابات العادية، وحسب ما رأوه: أنه متخلف، لكن وهم في تبوك الآن، من الصعب أن يكون هناك عذر لكعب بن مالك؛ لأنه لو كان هناك عذر فسيكون معروفًا غالبًا، وقد كان كعب بن مالك معهم بنشاطه وقوته، وهم يعرفون حاله وجميع أمره، فالرجل من بني سلمة هذا الذي قال عنه: "حبسه برداه، والنظر في عطفه" ليس بالضرورة أن يكون حاسدًا لكعب أو يريد إسقاطه.

كلّا، قد يكون كلامه طبيعياً من باب: كنا ذاهبين، وكان هو بخير وعافية وأموره جيّدة، وليس به شيء، فلماذا لم يأتِ؟ أكيد أنّه جالس! الفكرة: أنّ هذا الشخص أتى بالنتيجة المتوقعة، ومع ذلك، فما فعله معاذ بن جبل، العالم، الفقيه هو الموقف الصحيح.

فلا يمكن أن تمتنّ بحسن الظن في إخوانك في مواطن ليس فيها ريبة أصلاً! فحينها لا تكون قد فعلت شيئاً! ولو قلت: نحسن الظن بفلان. قد تكون أحياناً على صواب، فتأتي مثلاً قضية ليست ريبةً ولا تهمّةً ولا أيّ شيءٍ من ذلك، بل قضية فيها اختلاف علميٍّ مثلاً، فيجعل أحدهم هذه النقطة التي فيها خلاف علميٍّ أصلاً؛ لجهله، فيقول: وهي عبارة عن سيّئة وكذا...، ولكن نحسن الظن بفلان، لعله لا يعرف المسألة، لعلّه كذا... أقول لهذا: أنت لا تحسن الظن، يا حبيبي! وليس هذا مكان حسن الظن أصلاً، وليس مكاناً تتبرع فيه بحسن الظن أصلاً! حسن الظن يكون عندما تأتي الريبة، عندما يجيء الشيء الذي فيه تهمّة، وفيه ريبة، وفيه إشكال، هناك تحسن الظن! فقد جاء هذا عند الريبة.

أمّا عن تخلف كعب بن مالك، فلا أحد رآه مريضاً، ولم تكن عنده مشكلة، ولم يكن فقيراً، ولا ذكر شيئاً، ولم يُعلم أحداً بأنّ عنده عُذراً، ولم يكن به أيّ بأسٍ... وهذا مكان تهمّة، لكنّ التصرف الصحيح هو ما فعله معاذ بن جبل أمام رسول الله ﷺ، بل وأنكر على ذاك الرجل، قال: "بئس ما قلت، والله ما علمنا عليه إلّا خيراً"، لاحظ: "ما علمنا عليه إلّا خيراً"، هذه أهم قاعدة في إحسان الظنّ بالمسلمين، وهي: لا تحاكم الإنسان على حادثةٍ واحدةٍ، بل انظر إلى سجّله التاريخي، وانظر إلى مجموع حاله.

فعيَّب أن تنظر إلى حادثة واحدة! هذا خطأ! انظر إلى مجموع حال الإنسان: هل هو من أهل الدين، والعبادة، والصلاح، ونُصرة الدين، والعمل للإسلام، والتضحية، والبذل؟ وإذا جاءت حادثة مشتبّهة فيها إشكال، فإياك أن تحملها على محملٍ سيّئ!

ثم ذهب الإشكال، وذهبت التهمة، وتبين أن الأمر حقيقي: ثبت عليه أنه أخطأ خطأ معينًا بدون إصرار، واستمرار، واستهتار، ولكنه خطأ! كذلك هنا: مبدأ الحكم بمجموع الحال، وهو مبدأ شرعي. وإن كان حديث: "وَمَا يُدْرِيكَ لَعَلَّ اللَّهَ إِطَّلَعَ عَلَى أَهْلِ بَدْرٍ" خاصًا بأهل بدر، لكن أساس المعنى: عدم نسيان الحسنة العظيمة في مقابل بعض الزلات التي قد تحدث، والكلام كثير... "فَسَكَتَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ"، وهذا السكوت؛ لأنَّ مُعَاذًا أَنْكَرَ قَوْلَ الْمُنْكَرِ، وهذا أمر لا يحتاج تعليقًا، فالصواب واضح!

الفائدة الثالثة عشرة: افتقاد النبي ﷺ لأصحابه وتمنيه حضور من غاب منهم.

"فَبَيْنَا هُوَ عَلَى ذَلِكَ رَأَى رَجُلًا مُبْيَضًا يَزُولُ بِهِ السَّرَابُ"، هناك في الأفق! "فَقَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ: "كُنْ أَبَا خَيْثَمَةَ" أي: إنَّ رسول الله ﷺ تمنى أن يكون الرجل أبا خيثمة، ومعناه أنَّ النبي ﷺ أيضًا قد افتقد وجوده، فلما جاء من بعيدٍ، تمنى أن يكون هو! "فَإِذَا هُوَ أَبُو خَيْثَمَةَ الْأَنْصَارِيُّ وَهُوَ الَّذِي تَصَدَّقَ بِصَاعِ التَّمْرِ حِينَ لَمَزَهُ الْمُنَافِقُونَ"، ولاحظوا عمل المنافقين: ﴿الَّذِينَ يَلْمِزُونَ الْمُطَّوِّعِينَ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ فِي الصَّدَقَاتِ وَالَّذِينَ لَا يَجِدُونَ إِلَّا جُهْدَهُمْ فَيَسْخَرُونَ مِنْهُمْ لَا سَخِرَ اللَّهُ مِنْهُمْ وَلَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ﴾ [التوبة: ٧٩].

الفائدة الرابعة عشرة: ابتدار النبي ﷺ المسجد إذا رجع من غزوة.

قال كعب: "فَلَمَّا بَلَغَنِي أَنَّ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ قَدْ تَوَجَّهَ قَافِلًا"، وهذه الآن بداية القصة، وفيها فوائد كثيرة. فلنرجع ونؤكد أن من أهم مواضع هدي النبي ﷺ هو: هذه القصص التي تحدث، والتفاصيل، والحوارات، والنقاشات.

قال: "فَلَمَّا بَلَغَنِي أَنَّ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ قَدْ تَوَجَّهَ قَافِلًا مِنْ تَبُوكَ حَضَرَنِي بَنِي، فَطَفَقْتُ أَتَذَكَّرُ الْكَذِبَ وَأَقُولُ: بِمَ أَخْرُجُ مِنْ سَخَطِهِ غَدًا؟ وَأَسْتَعِينُ عَلَى ذَلِكَ بِكُلِّ ذِي رَأْيٍ مِنْ أَهْلِي، فَلَمَّا قِيلَ: إِنَّ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ قَدْ أَظَلَّ قَادِمًا زَاحَ عَنِّي الْبَاطِلُ حَتَّى عَرَفْتُ أَنِّي لَمْ أَنْجُ مِنْهُ بِشَيْءٍ أَبَدًا، فَاجْتَمَعْتُ صِدْقَهُ. وَأَصْبَحَ

رَسُولُ اللَّهِ ﷺ قَادِمًا، وَكَانَ إِذَا قَدِمَ مِنْ سَفَرٍ بَدَأَ بِالْمَسْجِدِ، فَرَكَعَ فِيهِ رُكْعَتَيْنِ، ثُمَّ جَلَسَ لِلنَّاسِ"، وهذه أيضًا قصةٌ وأمر عجيب! فسفر تبوك طويل المدة، والذهاب وحده مدة طويلة، والرجوع أيضًا مدة طويلة، وقد بقوا هناك عشرين يومًا، فكانت في المحصلة خمسين يومًا! تخيل أنك تسافر هذه المدة! ثم لاحظ أنه ليس سفرًا للنزهة، بل إنه سفرٌ بسببه تخلف من تخلف من المؤمنين، فكان حرًا، وشدة، ومسافةً طويلة، ومشقة: ﴿لَوْ كَانَ عَرَضًا قَرِيبًا وَسَفَرًا قَاصِدًا لَاتَّبَعُوكَ وَلَكِنْ بَعَدَتْ عَلَيْهِمُ الشُّقَّةُ﴾ [التوبة: ٤٢]، وقد نزلت هذه الآية في غزوة تبوك، فقال تعالى: ﴿لَكِنْ بَعَدَتْ عَلَيْهِمُ الشُّقَّةُ﴾: مسافة طويلة! أمر النبي ﷺ عجيب!

فكعب لم يتكلم عن هذه المرة، بل تكلم عن هدي النبي ﷺ الدائم! وقد يقول أحدهم: هذا عمل عادي. ونعم، هو ليس أمرًا شاقًا في ذاته، لكن الفكرة في النظر إلى هذا الحدث بعين النبوة، وإذا لاحظت هذا المعنى، ستجد أن هذه هي سيرة المصطفى ﷺ، فصلى الله عليه وسلم تسليمًا كثيرًا!

الفائدة الخامسة عشرة: تعامل النبي ﷺ مع المنافقين.

"وَكَانَ إِذَا قَدِمَ مِنْ سَفَرٍ، بَدَأَ بِالْمَسْجِدِ، فَيَرَكُعُ فِيهِ رُكْعَتَيْنِ، ثُمَّ جَلَسَ لِلنَّاسِ، فَلَمَّا فَعَلَ ذَلِكَ جَاءَهُ الْمُخَلَّفُونَ يَعْتَدِرُونَ إِلَيْهِ وَيَخْلُقُونَ لَهُ، وَكَانُوا بِضْعًا وَثَمَانِينَ رَجُلًا"، وهؤلاء الذين قال فيهم: مغموص في النفاق بضع وثمانين رجلًا، "... قَبِلَ مِنْهُمْ عِلَانِيَتَهُمْ وَبَايَعَهُمْ وَاسْتَغْفَرَ لَهُمْ وَوَكَّلَ سَرَائِرَهُمْ إِلَى اللَّهِ تَعَالَى".

وكانت هذه طريقة النبي ﷺ في التعامل مع المنافقين، حتى لو عرف بعضهم، أو كثيرًا منهم، أو أكثرهم، إذ قال تعالى: ﴿وَلَتَعْرِفَنَّهُمْ فِي لَحْنِ الْقَوْلِ﴾ [محمد: ٣٠]، فكان النبي ﷺ يتعامل معهم بهذه الطريقة ما داموا لم يُظهروا العداء، ولم يقوموا بشيء يمكن أن يُثبت عليهم من الناحية الشرعية. وفي هذا أيضًا فوائد كثيرة ومعنى؛ فليس كل من كان فيه شيء من الشر والسوء يُعامل معه بحزم، قد يُعامل معه بلين ورفق، ما دام لم يفعل ما يمكن أن يُثبت عليه أنه يستحق بسببه العقوبة شرعًا، أو نحو ذلك.

الفائدة السادسة عشرة: ابتسامه المَغْضَب.

"... حَتَّى جِئْتُ، فَلَمَّا سَلَّمْتُ تَبَسَّمُ تَبَسُّمُ الْمُغْضَبِ". الابتسامه العاديه معروفه، وكان النبي ﷺ إذا سَرَّ وابتسم أنار وجهه، وهناك ابتسامه العتب أو الغضب، ولسان حاله: لماذا فعلت هكذا؟ شعور النبي ﷺ هنا: الغضب، ولكن كان هناك ابتسامه! وتَبَسُّمُهُ تَبَسُّمُ الْمُغْضَبِ هذه -والله أعلم- هي رعاية لحق الصحبة الماضي؛ لما فعله كعب؛ فقد جاهد مع رسول الله، وباع في بيعة العقبة، ولذلك؛ فيما بين الغضب والمحبة والعتب تظهر ابتسامه المَغْضَب.

الفائدة السابعة عشرة: صدق كعب بن مالك في الاعتراف بسبب تخلفه رغم قدرته على الجدل والبيان.

"ثُمَّ قَالَ: "تَعَالَ". فَجِئْتُ أَمْشِي حَتَّى جَلَسْتُ بَيْنَ يَدَيْهِ، فَقَالَ لِي: "مَا خَلَّفَكَ؟ أَلَمْ تَكُنْ قَدْ ابْتَعْتَ ظَهْرَكَ؟". وقوله ﷺ: "ألم تكن قد ابتعت ظهرك" يُؤكِّد أنَّ الوضع معروف، وكأنَّ المعلومة شائعة: أنه كان جاهزاً، وأنه كان عنده القدرة. و"ابتعت ظهرك" معناها: اشتريت ما يملك من الدواب إلى هذا السفر البعيد.

قَالَ: "قُلْتُ: يَا رَسُولَ اللَّهِ إِنِّي -وَاللَّهِ- لَوْ جَلَسْتُ عِنْدَ غَيْرِكَ مِنْ أَهْلِ الدُّنْيَا لَرَأَيْتُ أَنِّي سَأُخْرَجَ مِنْ سَخَطِهِ بَعْذَرٍ، لَقَدْ أُعْطِيتُ جَدَلًا".

لقد كان كعب بن مالك شاعراً كبيراً، بل كان من أكبر الشعراء من الصحابة، فحَسَّانَ ثمَّ كعب! وإذا قرأت في (سيرة ابن هشام) مثلاً، ستجد أنه دائماً ما يُوردُ قصائد كعب، وهي كثيرة، وهو شاعرٌ كبيرٌ جداً.

فقال ما معناه: أنا عندي بيانٌ أستطيع أن أستعمل الأساليب التي تُخْرِجُنِي من الموقف، فهؤلاء المنافقون الذين أتوا الرسول ﷺ قبلي قالوا كلاماً عادياً، فقبل منهم، فأنا أقدر منهم على ذلك!

"... وَلَكِنِّي -وَاللَّهِ- لَقَدْ عَلِمْتُ لَنْ حَدَّثْتُكَ الْيَوْمَ حَدِيثَ كَذِبٍ تَرْضَى بِهِ عَنِّي لِيُوشِكَنَّ اللَّهُ يُسَخِّطَكَ عَلَيَّ، وَإِنْ حَدَّثْتُكَ حَدِيثَ صَدَقٍ تَجِدُ عَلَيَّ فِيهِ إِنِّي لَأَرْجُو فِيهِ عُقْبَى اللَّهِ، وَاللَّهُ مَا كَانَ لِي مِنْ عُذْرٍ، وَاللَّهُ مَا كُنْتُ قَطُّ أَقْوَى وَلَا أَيْسَرُ مِنِّي حِينَ تَخَلَّفْتُ عَنْكَ. قَالَ: فَقَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ: "أَمَّا هَذَا فَقَدْ صَدَقَ".

معنى ذلك أن النبي ﷺ يعرفُ كلام الذين أتوا قبل كعبٍ، أو على الأقل نستطيع أن نقول إنه كان في نفس النبي ﷺ ما فيها تجاه ذلك الكلام. وإذا كان كعب بن مالك قد عرف هؤلاء المنافقين، فمن باب أولى أن يعرفهم النبي ﷺ.

الفائدة الثامنة عشرة: أمر قبول العذر والتوبة بيد الله -عز وجل- وحده.

"أَمَّا هَذَا فَقَدْ صَدَقَ، فَتُمْ حَتَّى يَقْضِيَ اللَّهُ فِيكَ": القضية كلها عند الله، سبحانه وتعالى. قال كعب: لو صدقتُ أرجو عقي الله. والنبي ﷺ يقول: "تُمْ حَتَّى يَقْضِيَ اللَّهُ فِيكَ"، فالأمر عند الله -سبحانه وتعالى- في شأن هؤلاء الثلاثة الذين تخلفوا عن الغزوة. ولاحظوا العناية الربانية التفصيلية بهذه القضية: لقد أنزل فيها -سبحانه وتعالى- قرآنًا! ولاحظ قضية المهلة في التوبة والانتظار، وكل القصة إنما هي عند الله -سبحانه وتعالى- بأساسها، ومبتدئها، ومنتهها!

"وَسَارَ رِجَالٌ مِنْ بَنِي سَلَمَةَ فَاتَّبَعُونِي، فَقَالُوا لِي: وَاللَّهِ مَا عَلِمْنَاكَ أَذْنِبْتَ ذَنْبًا قَبْلَ هَذَا، لَقَدْ عَجَزْتَ فِي أَنْ لَا تَكُونَ اعْتَذَرْتَ إِلَى رَسُولِ اللَّهِ ﷺ بِمَا اعْتَذَرَ إِلَيْهِ الْمُخَلَّفُونَ فَقَدْ كَانَ كَافِيكَ ذَنْبَكَ اسْتَغْفَارُ رَسُولِ اللَّهِ ﷺ لَكَ": لقد استغفر الرسول ﷺ لأولئك الذين قبله، فهؤلاء قوم كعب بن مالك يقولون: يا كعب، لو أنك تكلمت بكلمة، فستجبر هذه الكلمة التي كنت لتكلم بها باستغفار رسول الله ﷺ. "قَالَ: فَوَاللَّهِ مَا زَالُوا يُؤَيَّبُونِي حَتَّى أَرَدْتُ أَنْ أَرْجِعَ إِلَى رَسُولِ اللَّهِ ﷺ فَأُكَذِّبُ نَفْسِي".

الفائدة التاسعة عشرة: مراقبة الصحابة للأحداث التي تحصل مع النبي ﷺ باهتمام وتناقل أخبارها.

"ثُمَّ قُلْتُ لَهُمْ: هَلْ لَقِيَ هَذَا مَعِيَ مِنْ أَحَدٍ؟ قَالُوا: نَعَمْ لَقِيَهُ مَعَكَ رَجُلَانِ قَالَا مِثْلَ مَا قُلْتَ، وَقِيلَ لَهُمَا مِثْلُ مَا قِيلَ لَكَ، قَالَ: قُلْتُ: مَنْ هُمَا؟ قَالُوا: مُرَارَةُ بْنُ الرَّبِيعِ الْعَمَرِيُّ، وَهَلَالُ بْنُ أُمَيَّةَ الْوَاقِفِيُّ".

ولاحظوا السيرة النبوية والأحداث التي فيها هي تحت الضوء دائماً، يسأل كعب: هل حدث لأحدٍ مثل ما حدث معي؟ فقول: نعم، اثنان: فلان وفلان حدث لهما نفس الذي حدث معك، وهذا في نفس الوقت.

فقد كانت الأحداث التي تحدث في المجتمع أمام النبي ﷺ دائماً معروفةً ومسلطاً عليها الضوء، ويتناقلها الناس، ويبدو لي أنّ السبب الأساسي في ذلك هو: شدة العناية بما يفعله ﷺ وبما يتعلق بالنبي ﷺ من أحوال. فإذا كان سكوت النبي ﷺ حديثاً، وهو الإقرار، وكما تعلمون: تعريف الحديث النبوي: هو قول النبي ﷺ أو فعله أو إقراره. والإقرار بالسكوت. فإذا كان سكوته ﷺ حديثاً، فمن باب أولى أن يتبع الناس الحديث المباشر؛ ليروا ما حدث!

الفائدة العشرون: ثقل الذنب.

"قَالَ: فَذَكَرُوا لِي رَجُلَيْنِ صَالِحَيْنِ قَدْ شَهِدَا بَدْرًا فِيهِمَا أُسُوءُ. قَالَ: فَمَضَيْتُ حِينَ ذَكَرَهُمَا لِي. وَهَيَّ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ عَنْ كَلَامِنَا أَيُّهَا الثَّلَاثَةُ مِنْ بَيْنِ مَنْ تَخَلَّفَ عَنْهُ": من بين البضعة والثمانين الذين ذكرهم، صدر قرار نبويّ في هؤلاء الثلاثة فقط بعدم الحديث معهم؛ أي بهجرهم! وإذا تأملت في ما فعلوه حتى يُهَجَرُوا، فلن تجد أنّهم قد زنوا، ولا شربوا الخمر، ولا سرقوا، ولا نظروا إلى الحرام، ولا نافقوا، بل صدقوا! فعلى أي شيء يُهَجَرُونَ؟ هنا، يعاد تعريفُ (ثقل الذنوب) من خلال السيرة، ومن خلال النبي ﷺ،

ومن خلال الوحي. نعم، لم يزنوا، لم يسرقوا، لم يشربوا الخمر، ولكنهم تخلفوا عن نصره الإسلام مع رسول الله ﷺ وكفى بذلك ذنبًا!

نحن اليوم نحتاج إلى إعادة تعريف ثقل الذنوب، فقد صار وجود الإنسان في مجال شرعيّ مثلاً أشبه بالتزكية والختم له أحياناً، فما دام لا يشرب الخمر ولا يزني، فهو على أحسن حال، ولو كان يخذل الإسلام والمسلمين، أو ينصر المجرمين المنافقين الذين يعادون الإسلام أو يعادون الدعاة والمصلحين!

فهذا أمرٌ عاديٌّ عند هؤلاء، فيقال: هي اختلافات سياسية، اختلافات وجهات نظر، اختلافات مواقف! سبحان الله، للناس وجهات نظر مختلفة...! كأنه أمر عاديٌّ! ولا شك أنّ مقدار وضوح الحق في زمن النبي ﷺ لا يُقَارَن بغيره، هذا أمرٌ مُسلَّم، لكن تبقى نسب للأشياء دائماً.

الفائدة الحادية والعشرون: نسبة الخصلة.

وبالمناسبة، حتى بعض النصوص التي نزلت في رسول الله ﷺ بعينه يقول فيها بعض العلماء: لِمَن التزم بهذه الخصلة فيها نسبة. يعني مثلاً: لما علّق ابن القيم على آية: ﴿إِذْ هُمَا فِي الْغَارِ إِذْ يَقُولُ لِصَاحِبِهِ لَا تَحْزَنْ إِنَّ اللَّهَ مَعَنَا﴾ [التوبة: ٤٠]

قال: وهذه المعية هي لأتباع رسول الله ﷺ إذا قاموا بكذا؛ لأنهم يحملون نسبةً منها. فنقول: نعم، ليس من تخلف عن رسول الله في نصره الإسلام والمسلمين كمن يتخلف عن نصره الإسلام والمسلمين فيمن بعد رسول الله ﷺ، فليس في ذلك نقاش، ولكن ليس معنى ذلك أنه لا يبقى أصلٌ للذم، أو نسبة مما حصل لهؤلاء الصحابة -رضوان الله تعالى عليهم- في زمن رسول الله ﷺ بسبب هذا الفعل، أو أصل هذا الفعل. فهذا معنى أيضاً من المعاني التي ينبغي الوقوف عندها.

الفائدة الثانية والعشرون: غياب المعنى في حياة الثلاثة الذين تخلفوا بسبب هجر الرسول ﷺ وأصحابه لهم.

"وَنَحَى رَسُولُ اللَّهِ ﷺ عَنْ كَلَامِنَا أَيُّهَا الثَّلَاثَةُ مِنْ بَيْنِ مَنْ تَخَلَّفَ عَنْهُ، فَاجْتَنَبْنَا النَّاسَ أَوْ قَالَ: تَغَيَّرُوا لَنَا حَتَّى تَنَكَّرْتُ لِي فِي نَفْسِي الْأَرْضُ، فَمَا هِيَ بِالْأَرْضِ الَّتِي أَعْرِفُ"

معنى ذلك: أنهم لم يبقَ لهم شيء يعيشون لأجله، فلم يكن لهم معنى يعيشون لأجله إلا معنى أنهم مع رسول الله ﷺ ومع الصحابة، فكانوا يعيشون لأجل ذلك، فلما هجرهم النبي ﷺ وأمر بهجرهم، لم يبقَ شيء! انتهى كل شيء! وهذا مختلفٌ عن حال الإنسان الذي يعيش لمعانٍ دنيوية كثيرة جداً، ولكنه لا ينسى الدين وبقيَ عنده شيء من الخير. هناك فرق! هناك، عندما تقول إنّ الرسول ﷺ والصحابة هجروا كعب بن مالك، هذا يعني أنّ كلَّ شيءٍ قد انتهى! لم يبقَ شيءٌ ليفعله! انتهى كل شيء! لذلك؛ لو كان الهجر يوماً واحداً، لكانت عقوبةً، فما بالكم وقد امتدت كل هذه المدة؟!!

الفائدة الثالثة والعشرون: فضل الصحابة -رضي الله عنهم- وشدة امتثالهم لأمر النبي ﷺ.

"فَلَبَّيْنَا عَلَى ذَلِكَ خَمْسِينَ لَيْلَةً، فَأَمَّا صَاحِبَايَ فَاسْتَكْنَا وَقَعَدَا فِي بُيُوتِهِمَا يَبْكِيَانِ وَأَمَّا أَنَا فَكُنْتُ أَشَبَّ الْقَوْمِ وَأَجْلَدَهُمْ فَكُنْتُ أَخْرَجُ فَأَشْهَدُ الصَّلَاةَ مَعَ الْمُسْلِمِينَ، وَأَطُوفُ فِي الْأَسْوَاقِ وَلَا يُكَلِّمُنِي أَحَدٌ".

هنا فائدة أخرى: مقدار امتثال الصحابة لأمر النبي ﷺ، وتغليب هذا الأمر على المقتضيات الاجتماعية، والأخوية، والنفسية، وغيرها من المقتضيات، حتى في الكلام!

ما دام الرسول ﷺ قال: لا تتكلم. فلا يتكلمون! ولا يقولون: ولكن هذا صاحبي... ذهبنا سوياً... سافرنا معاً، خرجنا في كذا... رحنا كذا... مسكنا السيوف معاً في صف واحد، في خندق واحد...! بل لما قال الرسول: لا تتكلم معه. لم يعد أحدٌ يتكلم معه! وهذه فائدة من جهة أخرى في: فضل الصحابة، ومقدار امتثالهم لأمر رسول الله ﷺ.

"وَأَتَى رَسُولَ اللَّهِ ﷺ فَأَسْلَمَ عَلَيْهِ، وَهُوَ فِي مَجْلِسِهِ بَعْدَ الصَّلَاةِ، فَأَقُولُ فِي نَفْسِي: هَلْ حَرَّكَ شَفْتَيْهِ بِرَدِّ السَّلَامِ أَمْ لَا؟ ثُمَّ أُصَلِّي قَرِيبًا مِنْهُ وَأُسَارِقُهُ النَّظَرَ، فَإِذَا أَقْبَلْتُ عَلَى صَلَاتِي نَظَرَ إِلَيَّ، وَإِذَا أَلْتَفْتُ نَحْوَهُ أَعْرَضَ عَنِّي، حَتَّى إِذَا طَالَ ذَلِكَ عَلَيَّ مِنْ جَفْوَةِ الْمُسْلِمِينَ مَشَيْتُ حَتَّى تَسَوَّرْتُ جِدَارَ حَائِطِ أَبِي قَتَادَةَ"، والحائط هو: الأرض أو المزرعة "... وَهُوَ ابْنُ عَمِّي وَأَحَبُّ النَّاسِ إِلَيَّ، فَسَلَّمْتُ عَلَيْهِ فَوَاللَّهِ مَا رَدَّ عَلَيَّ السَّلَامَ، فَقُلْتُ لَهُ: يَا أَبَا قَتَادَةَ أَنْشُدْكَ بِاللَّهِ هَلْ تَعَلَّمَنِي أَحَبُّ اللَّهِ وَرَسُولُهُ ﷺ؟"

جاهدنا معًا، وصلينا معًا، نصرنا الإسلام معًا، وزهبنَا وأتينا، وتكلمنا عن النبي ﷺ، وحضرنا الدروس عند النبي ﷺ، وحضرنا خطبة الجمعة، وحضرنا، وفعلنا... وقد كنتُ أعيش معه أصلاً، وكنت أقول القصائد في نصرته وفعلت وفعلت... قال: بالله أسألك، أسألك بالله! هل تعلم عني أني أحب الله ورسوله؟ "... فَسَكَتَ، فَعُدْتُ فَنَاشَدْتُهُ فَسَكَتَ، فَعُدْتُ فَنَاشَدْتُهُ فَقَالَ: **اللَّهُ وَرَسُولُهُ أَعْلَمُ**. فَقَاضَتْ عَيْنَايَ".

إذا نظرت إلى الموقف من زاوية كعب بن مالك، رأيت حالة الصعوبة والشدة، فإذا نظرت إليه من زاوية أبي قتادة، رجعت مرة أخرى لتقول: على ماذا تربى أصحاب رسول الله ﷺ من حقيقة الامتثال لأمر رسول الله ﷺ؟! هذا أصعب من كثير من العبادات، أصعب بكثير! لأنَّ بينهما رابطة دم، فهذا ابن عمه وأحب الناس إليه! يعني: كلُّ المقتضيات النفسية، وخاصة في وقت الشدة، لو أنه واساه بكلمة على الأقل! ولكنّه امتثل للأمر بعدم تكليمه! ربما يظن أحد أن الرسول ﷺ أمر بهجراهم؛ فلم يُحدِّثوهم، ولكنهم قالوا لهم كلمة أن: اصبر واحتسب الفرج من عند الله... ولكن حتى هذه ما وُجدت! وحتى لما قال له: "**أنشذك بالله أتعلم أني أحب الله ورسوله؟**" سكت! فأعاد عليه، فسكت! وأعاد، فما استطاع في نهاية الأمر إلا أن يقول: **الله ورسوله أعلم!**

الفائدة الرابعة والعشرون: مقدار تربص الأعداء بالنبي ﷺ.

"وَتَوَلَّيْتُ حَتَّى تَسَوَّرْتُ الْجِدَارَ فَبَيْنَا أَنَا أَمْشِي فِي سُوقِ الْمَدِينَةِ إِذَا نَبْطِيٌّ مِنْ نَبْطِ أَهْلِ الشَّامِ مِمَّنْ قَدِمَ بِالطَّعَامِ يَبِيعُهُ بِالْمَدِينَةِ يَقُولُ: مَنْ يَدُلُّ عَلَى كَعْبِ بْنِ مَالِكٍ؟ فَطَفَّقَ النَّاسُ يُشِيرُونَ لَهُ إِلَى حَتَّى جَاءَنِي فَدَفَعَ إِلَيَّ كِتَابًا مِنْ مَلِكِ عَسَّانَ، وَكُنْتُ كَاتِبًا. فَقَرَأْتُهُ فَإِذَا فِيهِ: أَمَّا بَعْدُ فَإِنَّهُ قَدْ بَلَّغَنَا أَنَّ صَاحِبَكَ قَدْ جَفَاكَ، وَلَمْ يَجْعَلْكَ اللَّهُ بَدَارِ هَوَانٍ وَلَا مَضِيعَةٍ، فَالْحَقُّ بِنَا نُوَاسِكَ، فَقُلْتُ حِينَ قَرَأْتُهَا: وَهَذِهِ أَيْضًا مِنْ الْبَلَاءِ".

هناك فائدة أخرى: وهي مقدار تربص الأعداء في المدينة بالنبي ﷺ والصحابة، فكان النبي ﷺ إذا أراد غزوة ورى بغيرها، فالمعلومات يمكن أن تصل؛ لأن هناك منافقين، ويهود قرييين من المدينة، وهناك حالة نبوية تحت الضوء، فما يحدث، وما يجري، وما يقول ﷺ... كله أمام الناس!

الفائدة الخامسة والعشرون: ابتلاء الإنسان في إيمانه عند الشدة.

وصل الخبر سريعًا، وجاءت ردة الفعل سريعًا: "الْحَقُّ بِنَا نُوَاسِكَ"، وهنا طبعًا يُبتلى الإنسان في إيمانه: هل يُغلب الجانب النفسي وردّات الفعل، أو يتخذ قراره بناء على إيمانه وحقيقته ما في قلبه؟

الفائدة السادسة والعشرون: التصرف الصحيح عند الابتلاء في الإيمان

"فَتَيَمَّمْتُ بِهَا التَّنَوُّرَ فَسَجَرْتُهَا": لم يحتفظ بها في مكان ما! ولم يترك لنفسه احتمال وسوسة الشيطان، بل قام وأحرقها بالنار! انتهى!

الفائدة السابعة والعشرون: مقدار طاعة كعب بن مالك للنبي ﷺ بعد كل ذاك الهجران.

"حَتَّى إِذَا مَضَتْ أَرْبَعُونَ مِنَ الْخُمْسِينَ وَاسْتَلْبَثَ الْوَحْيُ إِذَا رَسُولُ رَسُولِ اللَّهِ ﷺ يَأْتِينِي..."
تخيّلوا: أربعون يومًا! بعدها كلها، جاء رجل يطرق الباب، ليقول: أنا رسول أتيك من عند رسول الله ﷺ... لسان حال كعب حينها: الله أكبر! بشر! فهذه النفسية تتوقع أن تستقبل هذا!

"... فقال: إِنَّ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ يَأْمُرُكَ أَنْ تَعْتَزَلَ امْرَأَتَكَ، فَقُلْتُ: أَطَلَّقُهَا، أَمْ مَاذَا أَفْعَلُ؟ قَالَ: لَا بَلْ اعْتَزِلْهَا فَلَا تَقْرَبْنَهَا"، ولو قال له: طَلِّقْهَا، لَطَلَّقَهَا.

ولما قال: اعْتَزِلْهَا، اعْتَزَلَهَا! لاحظ إلى أيِّ درجةٍ من التسليم والطاعة وصل هؤلاء! فعندما نتكلم عن تربية النبي ﷺ لهذا الجيل الأول، هذا الجيل العظيم، فلسنا نتكلم عن أيِّ أحد! هذا -والله- شيء عظيم! تخيل أن يأتي أحد بعد كل هذه الصفحات البيضاء، فيقف عند محطاتٍ معيّنة صارت فيها فتن بين الصحابة وخلافات! يقول: بعد كل هذه المسيرة من الهجران، وبعد كل هذا البلاء، يُأمر بأن يعتزل امرأته؛ فيعتزلها. وسأل: أَطَلَّقُهَا؟ ف قيل: لا. ولو قيل: طَلِّقْهَا، لَطَلَّقَهَا! أمرٌ -والله- في غاية العجب!

"وَأَرْسَلَ إِلَى صَاحِبِي بِمَثَلِ ذَلِكَ. فَقُلْتُ لَامْرَأَتِي: الْحَقِي بِأَهْلِكَ فَكُونِي عِنْدَهُمْ حَتَّى يَقْضِيَ اللَّهُ فِي هَذَا الْأَمْرِ، فَجَاءَتْ امْرَأَةُ هِلَالِ بْنِ أُمَيَّةَ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ فَقَالَتْ لَهُ: يَا رَسُولَ اللَّهِ إِنَّ هِلَالَ بْنِ أُمَيَّةَ شَيْخٌ ضَائِعٌ لَيْسَ لَهُ خَادِمٌ، أي: مسكين، كبير، وليس له خادم؛ فما من أحد يدير أموره، "... فهل تَكْرَهُ أَنْ أَخْدُمَهُ؟" هذا بعد ما جاء! قالت: أهنأك مشكلة -يا رسول الله- إن بقيت أخدمه؟

"فَقَالَ: "لَا، وَلَكِنْ لَا يَقْرَبَنَّكَ"، فَقَالَتْ: إِنَّهُ وَاللَّهِ مَا بِهِ مِنْ حَرَكَةٍ إِلَى شَيْءٍ، وَوَاللَّهِ مَا زَالَ يَبْكِي مُنْذُ كَانَ مِنْ أَمْرِ مَا كَانَ إِلَى يَوْمِهِ هَذَا" يعني: ظلَّ يبكي أربعين يومًا! لا إله إلا الله! أربعون يومًا وهو يبكي؛ لأنه فقد كل شيء، فلم يبقَ له أيُّ شيء! انتهى، لولا بعض الأمل أن الله -سبحانه وتعالى- يقضي في هذا الأمر بالتوبة.

"فَقَالَ لِي بَعْضُ أَهْلِي: لَوْ اسْتَأْذَنْتَ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ فِي امْرَأَتِكَ، فَقَدْ أَدْنَى لَامْرَأَةِ هِلَالِ بْنِ أُمَيَّةَ أَنْ تَخْدُمَهُ؟"، وهذا يؤكد مرةً ثانية: كيف كان كلُّ شيءٍ تحت الضوء، فكلَّ حوارٍ يجري مع النبي ﷺ أو موقفٍ يحدث كان يصل إلى الجميع!

الفائدة الثامنة والعشرون: فرح المسلمين بتوبة الله على أحدهم.

"فَقُلْتُ: لَا أَسْتَأْذِنُ فِيهَا رَسُولَ اللَّهِ ﷺ، وَمَا يُدْرِينِي مَاذَا يَقُولُ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ إِذَا اسْتَأْذَنَتْهُ فِيهَا وَأَنَا رَجُلٌ شَابٌّ، فَلِشْتُ بِذَلِكَ عَشْرَ لَيَالٍ، فَكَمُلَ لَنَا خَمْسُونَ لَيْلَةً مِنْ حِينَ نُحْيِي عَنْ كَلَامِنَا، ثُمَّ صَلَّيْتُ صَلَاةَ الْفَجْرِ صَبَاحَ خَمْسِينَ لَيْلَةً عَلَى ظَهْرِ بَيْتٍ مِنْ بُيُوتِنَا، فَبَيْنَا أَنَا جَالِسٌ عَلَى الْحَالِ الَّتِي ذَكَرَ اللَّهُ تَعَالَى مِنَّا، قَدْ ضَاقَتْ عَلَيَّ نَفْسِي، وَضَاقَتْ عَلَيَّ الْأَرْضُ بِمَا رَحُبَتْ، سَمِعْتُ صَوْتَ صَارِخٍ أَوْفَى عَلَى سَلْعٍ".

وسَلْعٌ: جبلٌ قريبٌ من المسجد النبوي من الجهة الغربية، وهو الجبل الذي كان في ظهر النبي ﷺ والصحابة يوم الخندق، وخلفه المدينة. ويقع (سَلْعٌ) في الجهة الخلفية، وهو في مكان الخندق، يعني: من جهة خارج المدينة، أما الآن فكل هذا داخل المدينة، ولكن سابقاً كان وراء سَلْعٍ: الخندق، ثم الناس الذين يجيئون من الخارج، والجيش.

فهذا الذي صعد على سَلْعٍ إذا التفت إلى الجهة الداخلية -وليس الخارجية- جهة الخندق، فهو يلتفت إلى المدينة كلها؛ لأنَّ سَلْعٍ يحتضنُ المنطقة، وهو قريب من المسجد النبوي. وبعد الفجر، تكون الأصوات هادئةً كذلك، ولما يخرج الناس بعد، فإذا صعد أحدهم على سلع ونادى من جهة المسجد النبوي، فإنَّ هذا الصوت سيصل.

قال: "سَمِعْتُ صَوْتَ صَارِخٍ أَوْفَى عَلَى سَلْعٍ يَقُولُ بِأَعْلَى صَوْتِهِ: يَا كَعْبُ بْنُ مَالِكٍ أَبْشِرْ" لم يقل إلا: أبشر. ولم يذكر أي تفاصيل! لم يقل: لقد نزل الوحي بتوبتك. وإنما فقط: أبشر. فما كان من كعبٍ إلا أن: "فخَرَزْتُ سَاجِدًا، وَعَرَفْتُ أَنَّهُ قَدْ جَاءَ فَرَجٌ فَأَذَنَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ النَّاسَ بِتُوبَةِ اللَّهِ -عَزَّ وَجَلَّ- عَلَيْنَا حِينَ صَلَّيْتُ صَلَاةَ الْفَجْرِ".

"... فذهب النَّاسُ يُبَشِّرُونَا". معنى ذلك: أن الناس لم يكونوا متشفِّين بهذا الذنب! فليس الحال مثل بعض البيئات، نسأل الله العافية: كأنَّ الأمرَ تشفٍّ، كأنَّ الواحد منهم يفرح بأنَّ هناك شخصًا مُسكَّ عليه خطأ؛ فيتشفَّى به، ويعلن الحرب! لا، بل لما يجيء الشيء، فالأحب للناس أن يذهبوا للتبشير!

"فَإِذَنْ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ النَّاسَ بِتَوْبَةِ اللَّهِ -عَزَّ وَجَلَّ- عَلَيْنَا حِينَ صَلَّى صَلَاةَ الْفَجْرِ فَذَهَبَ النَّاسُ يُبَشِّرُونَا، فَذَهَبَ قَبْلَ صَاحِبِي مُبَشِّرُونَ، وَرَكَضَ رَجُلٌ إِلَيَّ فَرَسًا وَسَعَى سَاعٍ مِنْ أَسْلَمَ قِبَلِي وَأَوْفَى عَلَى الْجَبَلِ، وَكَانَ الصَّوْتُ أَسْرَعَ مِنَ الْفَرَسِ" هذا رجلٌ ركب فرسًا، وراح يركض إلى كعب بن مالك؛ حتى يبشِّره، "... فلمَّا جَاءَنِي الَّذِي سَمِعْتُ صَوْتَهُ يُبَشِّرُنِي نَزَعْتُ لَهُ ثَوْبِي فَكَسَوْتُهُمَا إِيَّاهُ بِبِشَارَتِهِ، وَاللَّهِ مَا أَمْلِكُ غَيْرَهُمَا يَوْمَئِذٍ"؛ ثوبان يعني: إزار ورداء؛ فالإزار ثوب، والرداء ثوب، وهو القماش الذي يشبه قماش الإحرام. والثوب في العرف في ذلك الوقت ليس هو المفصَّل، بل قطعة قماش.

لذلك؛ كُفِّنَ النبي ﷺ في ثلاثة أثوابٍ يمينية، بيضٍ سُحُولِيَّة، ليس فيهن قميص ولا عمامة. والقميص هو المفصَّل، وهو الذي فيه أكمام وثوب، مثل ثيابنا هذه التي نلبسها، نسمِّيها ثوبًا، فكانت هذه تُسمَّى: قميصًا سابقًا. وإذا كان لها طاقية من الخلف تُسمَّى: برنسًا، أي: مثل ثياب المغاربة. أما الإزار والرداء مثل الإحرام فكلُّ منهما اسمه: ثوب، فما يُلبَس في الجزء السفلي اسمه: ثوب، وما يُلبَس في الأعلى اسمه: ثوب. وكان لكعب بن مالك ثوبان، فنزعهما وأعطاهما إياه!

"... وَاللَّهِ مَا أَمْلِكُ غَيْرَهُمَا يَوْمَئِذٍ، وَاسْتَعَرْتُ ثَوْبَيْنِ فَلَبَسْتُهُمَا وَانْطَلَقْتُ أَتَأْتِمُّ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ يَتَلَقَّانِي النَّاسُ فَوْجًا فَوْجًا يُهَنِّئُونِي بِالتَّوْبَةِ".

رضي الله عن المحدثين، الذين نقلوا لنا السنَّة وحفظوها لنا، ونقلوا الأحاديث! ورضي الله عن الصحابة الذين حدَّثوا بهذه الأحاديث! وصلِّ اللهم على رسول الله! والله يا أخي، عندما تتعلَّم، ترى شيئًا مختلفًا! فحتى المدينة قامت على أطراف أصابعها مع هذا الحدث. والآن فعلاً، كأنَّ كل شيء أسفر؛ فأفواج

الناس آتية الآن، وها هو ذاهبٌ إلى النبي ﷺ! وقبل أن يصل إلى النبي ﷺ، كان الناس يتلقَّونه أفواجًا يهنِّونه بالتوبة، "وَيَقُولُونَ لِي: لَتَهْنِكَ تَوْبَةُ اللَّهِ عَلَيْكَ".

الفائدة التاسعة والعشرون: مخالطة النبي ﷺ للناس.

"حَتَّى دَخَلْتُ الْمَسْجِدَ فَإِذَا رَسُولُ اللَّهِ ﷺ جَالِسٌ حَوْلَهُ النَّاسُ".

لَمَّا رَجَعَ ﷺ من السفر، صلى ركعتين وجلس للناس، ولما كان في تبوك، كان الناس معه أصلاً... إلى أن قالت عائشة، رضي الله عنها: "فَلَمَّا حَطَمَهُ النَّاسُ، صَارَ يَصْلِي جَالِسًا". وذلك من كثرة مخالطتهم أو طلباتهم واحتياجاتهم، والعناية بهم تتعب! لكن كلمة "حوله الناس" تدلّ على أنّ رسول الله ﷺ لم يكن معتزلاً، بل كان الناس معه دائماً؛ فهو يوجّه هذا، ويعلم هذا، ويرى هذا، ويتكلم مع هذا، ويصلح أحوال هذا...

الفائدة الثلاثون: الإنسان لا ينسى من أحسن إليه وقت الشدة.

"... فَقَامَ طَلْحَةُ بْنُ عُبَيْدٍ اللَّهِ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ يُهْرُولُ حَتَّى صَافَحَنِي وَهَنَّا بِي " تخيلوا المشهد: قام لما رآه، وجرى يهرول! "... وَاللَّهِ مَا قَامَ رَجُلٌ مِنَ الْمُهَاجِرِينَ غَيْرُهُ"، فَكَانَ كَعَبٍّ لَا يَنْسَاهَا لِطَلْحَةَ! هذه اللحظات لا تُنسى، ولا يُنسى من يُحسِنُ إليك فيها، فالإنسان لا ينسى من يقف معه في لحظات الابتلاءات النفسية الصعبة، حتى لو كان شيئاً بسيطاً!

الفائدة الحادية والثلاثون: تأثير المشاعر على وجه النبي ﷺ.

"قَالَ كَعَبٌ: فَلَمَّا سَلَّمْتُ عَلَى رَسُولِ اللَّهِ ﷺ، قَالَ: وَهُوَ يَبْرُقُ وَجْهُهُ مِنَ السُّرُورِ".

كان عنوان أحد المجالس: (تأثير المشاعر على وجه النبي ﷺ)؛ فليس المحفوظ هو كلام الرسول ﷺ فقط، ولا كيف كان يصلي، ولا كيف كان يحج، ولا عدد غزواته فقط! بل حُفظت لنا حتى طبيعة المشاعر وآثارها على وجه رسول الله ﷺ، فهذا محفوظ، وهو كثير!

وقد قال أبو سعيد الخدري في الحديث الصحيح: "وَإِذَا كَرِهَ شَيْئًا عُرِفَ فِي وَجْهِهِ" [صحيح البخاري: ٣٥٦٢]، وهذا يعني: أنَّ الصحابة كانت عندهم خبرةٌ بتأثير المشاعر على وجه النبي ﷺ، فكان أحياناً لا يحتاج إلى أن يتكلم حتى، وإنما إذا صار شيء يُنظر لوجه النبي ﷺ، فيظهر أنه كره هذه القضية، والحديث كاملاً: "كَانَ النَّبِيُّ ﷺ أَشَدَّ حَيَاءً مِنَ الْعَذْرَاءِ فِي خَذِرِهَا، وَإِذَا كَرِهَ شَيْئًا عُرِفَ فِي وَجْهِهِ".

الفائدة الثانية والثلاثون: خير يوم في حياة الإنسان هو يوم يتوب الله عليه.

قال: "وهو يبرق وجهه من السرور"، يبرق مثل: استنار. فقال رسول الله ﷺ: "أَبَشِّرْ بِخَيْرِ يَوْمٍ مَرَّ عَلَيْكَ مُذْ وَلَدْتَكَ أُمَّكَ"، مع أنه: بايع، وجاهد، وصبر، وثبت، ونصر، لكنَّ خير يوم مرَّ عليه مذ ولدته أمه هو: اليوم الذي تاب الله عليه فيه! ولأجل ذلك، أورد الإمام النووي -رحمه الله- هذا الحديث في باب التوبة؛ ففيه: فضل التوبة، وقيمة التوبة، ومنزلة التوبة. فقيمتها وأهميتها من حيث كونها فعلاً من العبد، ومن حيث كونها قبولاً من الله لهذا الفعل من العبد، من الجهتين.

قال كعب بن مالك: "فَقُلْتُ: أَمِنْ عِنْدِكَ يَا رَسُولَ اللَّهِ أَمْ مِنْ عِنْدِ اللَّهِ؟"، كان فرحاً وغير مُصدِّقٍ، ويسأل: هل فيها شيء من عند الله سبحانه وتعالى؟ "فَقَالَ ﷺ: "لَا بَلْ مِنْ عِنْدِ اللَّهِ"، وكان رسول الله ﷺ إِذَا سُرَّ اسْتَنَارَ وَجْهُهُ حَتَّى كَأَنَّ وَجْهَهُ قِطْعَةُ قَمَرٍ، وَكُنَّا نَعْرِفُ ذَلِكَ مِنْهُ" كانوا يعرفون إذا سُرَّ النبي ﷺ، ماذا يحدث في وجهه بالضبط: كان إذا سُرَّ، استنار وجهه كأنه قطعة قمر ﷺ! اللهم صلِّ على عبدك ورسولك محمد.

الفائدة الثالثة والثلاثون: لا يعرف قيمة الخصال حقًا إلا من عاشها وابتلي بها.

"فَلَمَّا جَلَسْتُ بَيْنَ يَدَيْهِ قُلْتُ: يَا رَسُولَ اللَّهِ إِنَّ مِنْ تَوْبَتِي أَنْ أُخْلَعَ مِنْ مَالِي صَدَقَةٌ إِلَى اللَّهِ وَإِلَى رَسُولِهِ" المال الذي كان عند كعب: قد يكون الراحلتين اللاتين كانتا عنده، وقد يكون عنده بعض النخيل، أما من باب ما يُمسك باليد وما هو في المتناول، فلم يكن عنده إلا الثوبان؛ لأن الأنصار أصحاب أراضٍ وأصحاب نخيل.

"... فَقَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ: "أَمْسِكْ عَلَيْكَ بَعْضَ مَالِكَ فَهُوَ خَيْرُ لَكَ"، فَقُلْتُ إِنِّي أُمْسِكُ سَهْمِي الَّذِي بِخَيْبَرٍ، وَقُلْتُ: يَا رَسُولَ اللَّهِ إِنَّ اللَّهَ -تَعَالَى- إِنَّمَا أَنْجَانِي بِالصِّدْقِ، وَإِنَّ مِنْ تَوْبَتِي أَنْ لَا أُحْدِثَ إِلَّا صِدْقًا مَا بَقِيَْتُ".

● وهنا أسألك سؤالاً: هل تتوقع أن تكون قيمة الصدق عندك كقيمة الصدق عند كعب بن مالك؟

صعبٌ أن تكون منزلة الصدق عندك -وإن كنت تؤمن بهذه المنزلة وبهذا الفضل- كمنزلة من عاش أثر الصِّدْقِ، وذاقه، ورآه، وعرفه، وجربَه! فخلاصة قصّة كعب بن مالك: أنّه صدق فنجى! أرايت هذا في كعب بن مالك في الصدق؟ قل مثله في بقية الخلال والخصال لمن عاش أو لم يعيش ما يتعلق بها من الناحية العملية.

ما قيمة الصَّبْرِ عندك؟ إن كنت ممن ابتُلِيَ، وجَرَّبَ، وصبر، وثبت، وعاش، وعانى، وكابد، وصبر، ثم صبر، ثم صبر، ثم رأى معية الله للصّابرين، وعونه ومدده، فما إن تسمع كلمة الصبر، أو تمرّ عليك آية في القرآن فيها ذكر الصبر، فإنك تتعامل معها تعاملًا مختلفًا، بل وستكون فقيهاً في الصبر، خبيراً بالصبر، وهكذا في بقية الأعمال.

من أعظم الثمرات التي يحصلها الإنسان الذي يعيش مقتدياً بأحوال الأنبياء، خاصة في قضية الدعوة، وتبليغ الدين، والتضحية في سبيل الله، ونصرة الدين، والتحمل: أن يكون للآيات القرآنية عليه وقع أكثر ممن لم يجرب هذه الأحوال؛ لأنّ القرآن فسيح في معانيه، فإذا لم تكن حياتك فسيحة بقدر هذه السعة في المعاني التي تناولها القرآن، فستظل هناك كثير من المساحات من معاني القرآن لا تتماس معك.

"فوالله ما علمتُ أحدًا من المسلمين أبلأه الله -تعالى- في صدق الحديث منذ ذكرتُ ذلك لرسول الله ﷺ أحسن مما أبلاني الله تعالى، والله ما تعمّدت كذبةً منذ قلت ذلك لرسول الله ﷺ إلى يومي هذا، وإني لأرجو أن يحفظني الله -تعالى- فيما بقي، قال: فأنزل الله تعالى: ﴿لَقَدْ تَابَ اللَّهُ عَلَى النَّبِيِّ وَالْمُهَاجِرِينَ وَالْأَنْصَارِ الَّذِينَ اتَّبَعُوهُ فِي سَاعَةِ الْعُسْرَةِ﴾ حتى بلغ: ﴿إِنَّهُ بِهِمْ رُؤُوفٌ رَحِيمٌ﴾، ﴿وَعَلَى الثَّلَاثَةِ الَّذِينَ خَلَفُوا حَتَّى إِذَا ضَاقَتْ عَلَيْهِمُ الْأَرْضُ بِمَا رَحُبَتْ﴾ حتى بلغ: ﴿اتَّقُوا اللَّهَ وَكُونُوا مَعَ الصَّادِقِينَ﴾" قال كعب: "والله ما أنعم الله عليّ من نعمة قطُّ بعد إذ هداني الله للإسلام أعظم في نفسي من صدقي رسول الله ﷺ أن لا أكون كذبتُهُ، فأهلك كما هلك الذين كذبوا. إن الله تعالى قال للذين كذبوا حين أنزل الوحي شرّ ما قال لأحد، فقال الله تعالى: ﴿سَيَخْلِفُونَ بِاللَّهِ لَكُمْ إِذَا انْقَلَبْتُمْ إِلَيْهِمْ لِتُعْرِضُوا عَنْهُمْ فَأَعْرِضُوا عَنْهُمْ إِنَّهُمْ رَجَسٌ وَمَأْوَهُمُ جَهَنَّمُ جزاء بما كانوا يكسبون﴾ * يَخْلِفُونَ لَكُمْ لِتَرْضَوْا عَنْهُمْ فَإِنْ تَرْضَوْا عَنْهُمْ فَإِنَّ اللَّهَ لَا يَرْضَى عَنِ الْقَوْمِ الْفَاسِقِينَ﴾ [التوبة: ٩٥ - ٩٦]".

الفائدة الرابعة والثلاثون: صدق فنجي!

بالله، لو كان كعب بن مالك لم يصدق في ذلك المقام واستجاب لمحاولات بعض أقاربه لأن يعود فيكذب نفسه، وتخيلوا أنه نجا ذاك الوقت، ثم تخيلوا أن تنزل هذه الآيات ويسمعها ﴿يَخْلِفُونَ لَكُمْ لِتَرْضَوْا عَنْهُمْ فَإِنْ تَرْضَوْا عَنْهُمْ فَإِنَّ اللَّهَ لَا يَرْضَى عَنِ الْقَوْمِ الْفَاسِقِينَ﴾، فكيف ينام؟! كيف يعيش بقية حياته؟! صدق فنجي!

قَالَ كَعْبٌ: "كُنَّا خُلَفَا أَيْهَا الثَّلَاثَةُ عَنْ أَمْرِ أُولَئِكَ الَّذِينَ قَبِلَ مِنْهُمْ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ حِينَ حَلَفُوا لَهُ، فَبَايَعَهُمْ وَاسْتَغْفَرَ لَهُمْ، وَأَرْجَأَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ أَمْرَنَا حَتَّى قَضَى اللَّهُ تَعَالَى فِيهِ بِذَلِكَ، قَالَ اللَّهُ تَعَالَى: ﴿وَعَلَى الثَّلَاثَةِ الَّذِينَ خُلِفُوا﴾ وَلَيْسَ الَّذِي ذَكَرَ مِمَّا خُلِفْنَا تَخَلُّفُنَا عَنِ الْعَزْوِ، وَإِنَّمَا هُوَ تَخْلِيفُهُ إِيَّانَا وَإِرجاؤه أَمْرَنَا عَمَّنْ حَلَفَ لَهُ وَاعْتَذَرَ إِلَيْهِ فَقَبِلَ مِنْهُ". مُتَّفَقٌ عَلَيْهِ.

وفي رواية: "أَنَّ النَّبِيَّ ﷺ خَرَجَ فِي غَزْوَةِ تَبُوكَ يَوْمَ الْخَمِيسِ، وَكَانَ يُحِبُّ أَنْ يَخْرُجَ يَوْمَ الْخَمِيسِ."

وفي رواية: "وَكَانَ لَا يَقْدُمُ مِنْ سَفَرٍ إِلَّا نَهَارًا فِي الضُّحَى، فَإِذَا قَدِمَ بَدَأَ بِالْمَسْجِدِ فَصَلَّى فِيهِ رَكَعَتَيْنِ ثُمَّ جَلَسَ فِيهِ".

الخاتمة:

وصلَّى الله على نبينا محمد وعلى آله وصحبه أجمعين. نسأل الله العون، والسداد، والمغفرة، والرحمة، وأن يحشرنا في زُمرَةِ النبي ﷺ، وأن يجعلنا مِنَ الْوَارِدِينَ عَلَى حَوْضِهِ، وأن يجعلنا معه في جَنَةِ الْخُلْدِ فِي الْفَرْدَوْسِ. ونسأل الله أن يفرج همَّ المهمومين من المسلمين، وأن ينصر عباده المستضعفين من المؤمنين في كل مكان، وأن يهلك أعداءه المجرمين المعتدين المفسدين، ولا حول ولا قوة إلا بالله.